

## الفصل الأول من المولد إلى المبعث

### المبحث الأول: نسب الرسول ﷺ

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيِّ بن كِلَاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

أخرج هذا القدر من نسبه البخاري في صحيحه، وهو المجمع عليه بين العلماء، أما ما بعده إلى آدم عليه السلام فمختلف فيه كثيرًا، وليس فيه ما يعتمد عليه. ولكن مما لا خلاف فيه أن عدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام

وأخواله من بني زهرة [نفسه]، لأن أمه آمنة بنت وهب كانت منهم [الفتح]. ويلتقي نسبه بنسبها في كلاب بن مرة [ابن حبان: السيرة، ابن عساکر].

و شاء الله ﷻ أن يكون من أعلى وأطهر أهل الأرض نسبًا وأشرفهم قومًا وقبيلةً وفخذًا. وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم]. ويقول: «إن الله عز وجل يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثم حين جعل القبائل جعلني في خير قبيلة، ثم حين جعل البيوت جعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نسبًا، وخيرهم بيتًا» [الترمذي، حسن صحيح].

ولم يستطع أبو سفيان أن ينكر علو وسمو نسب الرسول ﷺ، على الرغم مما كان له من عداة للرسول ﷺ قبل إسلامه، فقال لهرقل - ملك الروم بالشام - : «هو فينا ذو نسب» [البخاري].

ذلكم هو نسب محمد ﷺ، الذي سماه جده عبد المطلب وأمه آمنة بهذا الاسم رغبة منها عن أسماء أهل بيته، وأرادا أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض [البيهقي: الدلائل، مرسل].

### حكم وفوائد من هذا الاصطفاء:

١ - ما دامت العرب لا تسمع إلا لذوي الأنساب العالية فيهم، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون نبيه محمد ﷺ من أعلاهم نسباً، حتى لا يكون لأعداء الإسلام سلاح في أيديهم للصد عن سبيل الله، وحتى لا يتوهم متوهم أن رسالته ما هي إلا وسيلة لغاية، وهي تغيير وضعه الاجتماعي.

٢ - إن اختيار الله تعالى لنبيه محمد ﷺ من العرب يقتضي من المسلم أن يحبهم من حيث الجنس، لا من حيث الأفراد، لأن الأفراد قد ينحرفون عن الإسلام، فينبغي هنا كره أفعالهم المنحرفة لا كره جنسهم العربي.

### المبحث الثاني: الختان والتسمية

اختلف العلماء في أمر ختانه، فمنهم من قال (إنه ولد مختوناً)، ومنهم من قال: (ختنه جده عبد المطلب يوم سابعه، وصنع له مأدبة، وسماه محمداً) [الذهبي: السيرة]، والذي رجحه بعض كبار العلماء القدماء أنه ولد مختوناً [أمثال: أبو نعيم والطبراني والبغدادي وابن عساكر والحاكم].

وعندما سأله قومه عن سبب رغبته عن أسماء أهل بيته، أجابهم بأنه يريد أن يحمده الله في السماء ويحمده خلقه في الأرض.

وعرف الرسول ﷺ بأسماء أخرى، فقد قال [كما في الصحيحين]: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». وقال الراوي - الزهري: (والعاقب الذي ليس بعده نبي). وزاد ابن سعد: «... والخاتم...»، وزاد مسلم أسماء أخرى، وهي المقفى ونبي الرحمة، وزاد الترمذي [في الشئبل] «... نبي الملاحم...». وقد وردت أخبار بأن أمه سمته أحمد. فقد روى ابن سعد بإسناد حسن عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سميت أحمد». وثبت الاسم أحمد ومحمد بنصوص القرآن الكريم.

ولما كان والده قد توفي وهو في بطن أمه، فينصرف القائم بالتسمية إلى الأم. ويشهد لذلك ما رواه ابن سعد من طريق الواقدي بسنده إلى أبي جعفر محمد بن علي، قال: «أمرت أمّنة وهي حامل برسول الله ﷺ أن تسميه أحمد»، ويشهد له أيضًا ما رواه أبو نعيم عن بريدة وابن عباس قالوا: «رأت أمّنة في منامها فقيل لها: إنك قد حملت بخير البرية وسيد العالمين، فإذا ولدته فسميه أحمد ومحمدًا... إلخ». ويشهد له ما رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل، وقال: «وكانت أمّنة تحدث أنها أتيت حين حملت بمحمد ﷺ فقيل لها: فإذا وقع فسميه محمدًا، فإن اسمه في التوراة والإنجيل أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض واسمه في القرآن محمد. فسمته بذلك. وفي آخر الرواية أنها أخبرت عبد المطلب بما أمرت أن تسميه. فقال شعرًا وفي آخره: «أحمد مكتوب على اللسان». وقد رواه ابن عساكر أيضًا.

وكني بأبي القاسم، [كما في البخاري وغيره]، وأمر أن نسمي باسمه ولا نكني بكنيته [كما في الصحيحين وغيرهما]. وكناه جبريل عليه السلام بأبي إبراهيم، ولكنه كره أن يحول كنيته التي عرف بها. واختلف العلماء في أمر التكني بكنيته، وفي أمر الجمع بين اسمه وكنيته، فقيل إنها نهى عن التكني بكنيته في حال حياته، وقيل إنها نهى أن يجمع بين اسمه وكنيته فقط [ابن عساكر].

ولم يعرف اسم: أحمد قبله، وسمت بعض العرب باسم محمد لما شاع قبيل وجوده أن نبياً سيبعث اسمه محمد<sup>٦</sup> [السبل].

### المبحث الثالث: اليتيم ورعاية الجد ثم العم

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخ وفاة والده. والذي قاله ابن إسحاق [في السيرة]، ورجحه ابن سعد، إن ذلك كان وهو في بطن أمه، وهو المشهور، الذي رجحه كثير من العلماء [البداية]، وجزمت الآية القرآنية الكريمة: ﴿الْمَ يَمْجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦]، بأنه كان يتيمًا.

وقال السهيلي في الروض عن تحديد تاريخ وفاة والده: (وذكر أنه مات أبوه وهو حمل، وأكثر العلماء على أنه كان في المهد، ذكره الدوالي وغيره، وقيل: ابن شهرين، ذكره ابن أبي خيثمة، وقيل: أكثر من ذلك،...، وقيل: مات أبوه وهو ابن ثمان وعشرين شهراً، وأنشدوا رجزاً لعبد المطلب يقول لابنه أبي طالب:

أوصيك يا عبد مناف بعدي بمؤتم بعد أبيه فرد

فارقه وهو ضجيع المهد

والمشهور أنه ولد بمكة يتيم الأب، في يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، في العام المشهور بعام الفيل [طرهوني].

وعندما مات والده كفله جده عبد المطلب، وهو تحت رعاية أمه آمنة بنت وهب.

وكانت وفاة والده بالمدينة، عند أخواله - أي أخوال أبيه عبد المطلب - بني عدي ابن النجار، عندما أرسله والده عبد المطلب إليها ليشتري منها تمرًا [الاستيعاب؛ ابن سعد]. ودفن في دار النابغة، تحت عتبة البيت الثاني على يسار من يدخل دار النابغة. [ابن شبة، ضعيف] وكانت وفاته عن خمس وعشرين سنة [ابن سعد، ضعيف].

ظل الرسول ﷺ في رعاية أمه آمنة وكفالة جده عبد المطلب بعد أوبته من بادية بني سعد. وعندما بلغ من العمر ست سنين توفيت والدته آمنة بالأبواء، [والأبواء قرية بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، ومصدر الخؤولة أن هاشم بن عبد مناف تزوج بالمدينة سلمى بنت عمرو النجارية، فولدت له عبد المطلب [شبية]، وهي راجعة به إلى مكة من زيارة قامت بها معه إلى أخوال جده عبد المطلب بني عدي بن النجار بالمدينة المنورة [ابن إسحاق في السيرة، مرسل صحيح عبد الرزاق، مرسل صحيح].

وحملته مولاته وحاضنته أم أيمن إلى جده عبد المطلب بمكة، فأخذ يحوطه بعنايته إلى أن توفي وللنبي ﷺ ثمان سنوات من العمر [ابن إسحاق، مرسل صحيح؛ الأزرقى، حسن؛ الذهبي: السيرة]، فأوصى به إلى عمه أبي طالب [ابن هشام؛ ابن سعد؛ الذهبي: السيرة]. وقد رويت أخبار في مدى عناية جده عبد المطلب به. من ذلك ما رواه أبو يعلى، أن عبد المطلب أرسل محمدًا ذات مرة في إثر إبل له ضلّت، فاحتبس عليه حتى حزن حزنًا شديدًا، وأخذ يطوف بالبيت وهو يقول مرتجزًا:

رَبِّ رُدِّ إِلَيَّ رَاكِبِي مُحَمَّدًا      يَا رَبِّ رُدِّهِ وَاصْنَعْ عِنْدِي يَدًا

وعندما عاد محمد بالإبل أقسم ألا يبعثه في حاجة له أبداً، ولا يفارقه بعد هذا أبداً. وكان يقربه ويدنيه منه، ولا يدع أحداً يدخل عليه وهو نائم. وكان له مجلس لا يجلس عليه غيره. وكان له فراش في ظل الكعبة، يجلس حوله بنوه ويجلس النبي ﷺ عليه مع جده.

وترى كتب السير أن أبا طالب كان شديد الاعتناء أيضاً بابن أخيه محمد ﷺ. فكان لا ينام إلا ومحمد إلى جنبه، ولا يخرج إلا معه، ويخصه بالطعام، ولا يأكل إلا عندما يحضر محمد. وظل يحوطه بعنايته إلى أن توفي قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين.

### حكمة يته الرسول ﷺ:

١ - لقد شاء الله ﷻ أن ينشأ الرسول ﷺ يتيمًا بعيدًا عن تربية أبيه وأمه وجده، لأن والده قد توفي وهو في بطن أمه، وقضى معظم فترة طفولته الأولى ببادية بني سعد، بعيدًا عن أسرته كلها، ثم ما لبث أن توفيت أمه، ولم يمكث معها سوى مدة يسيرة، وبعدها بمدة يسيرة توفي جده عبد المطلب. كل ذلك لحكم، لعل من أبرزها أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة في القلوب، أو إيهاً الناس بأن محمداً إنما رضع لبان دعوته ورسالته منذ صباه بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده ليصل إلى جاه الدنيا باصطناع النبوة. فقد كان لجده مكانة مرموقة في قومه، فلقد كانت إليه الرفادة والسقاية، أي إطعام الحجاج وسقايتهم [ابن إسحاق].

٢ - ولعل في يتمه أسوة للأيتام في كل زمان ومكان، ليعرفوا أن اليتيم ليس نقمة، وإنه لا يجب أن يقعد بصاحبه عن بلوغ أسمی المراتب.

### • المبحث الرابع: من إرهاصات النبوة عند ميلاده

وصاحبت ولادته بعض الإرهاصات الدالة على نبوته. وما ثبت منها بطرق صحيحة، [عند أحمد وابن إسحاق]، قوله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، رأت أمي حين حملت بي كأن نوراً خرج منها أضواءت له قصور بصرى من أرض الشام». [والإرهاص: المقدمة للشيء والإيدان به، فالبرق - مثلاً - يؤذن بنزول المطر].

وجاء في رواية مرضعته حليلة السعدية عند ابن إسحاق [في السيرة] وابن سعد وأحمد [في المسند، بإسناد حسن، والحاكم، بإسناد صحيح]، أن والدته آمنة قالت: «ووقع حين ولدته، وإنه لو اضع يديه بالأرض، رافعاً رأسه إلى السماء». وفي رواية: أن أمه عندما ولدته وضع تحت بُرْمَةٍ، كعادة أهل الجاهلية، فلما أصبحت نظرت إليه فإذا البرمة قد انفلقت ثنتين، وإذا هو قد شخص بصره إلى السماء.

وما لم يثبت بطرق صحيحة، ولكنه اشتهر، مثل قولهم [كما في دلائل البيهقي]: إنه حين ولد سقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخذت النار التي كان يعبدها المجوس، وغاصت بحيرة (ساوة)، وانهدمت المعابد التي كانت حولها.

### • المبحث الخامس: رضاعة الرسول ﷺ

اشتهر عند أهل المغازي والسير أن ممن أرضعنه حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية، حين أخذته معها إلى بادية قومها، فأقام معها نحو أربع سنين، ثم ردت إلى أمه.

لقد تفرد ابن إسحاق برواية خبر إرضاع حليلة الرسول ﷺ وإقامته معها ببادية بني سعد. وحكم محققا سيرة ابن هشام (د.همام وزميله) والشيخ الألباني بضعف إسناد هذا الخبر. ونص رواية ابن إسحاق:

(كانت حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية، أم رسول الله ﷺ التي أرضعته، تحدث: أنها خرجت به من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك في سنة شهباء [فيها قحط] لم تبق لنا شيئاً فخرجت على أتان [أنثى الحمر] لي قمراء [بيضاء]، معنا شارف [الناقة المسنة] لنا، والله ما تبص [تسيل] بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذي، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أدمت [أطلت السفر] بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً [هزالاً]، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أننا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده! فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي زوجي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاأخذنه؛ قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أنني لم أجد غيره. قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، ولما وضعت في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل [ممتلئة حليباً]، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة. قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليلة، لقد أخذت نسمةً مباركة. قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أتاني، وحملت عليها معي. فوالله لقطع بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم، حتى إن صواحيبي ليقلن لي: يا بنت أبي ذؤيب، ويحك! اربعي [انتظرينا] علينا، أليست هذه أتانك التي

كنت خرجت عليها؟ فأقول لمن: بلى والله، إنها لهي هي؛ فيقلن: والله إن لها لشأنًا. قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شِباعًا لُبْنًا [غزيرات الحليب]، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم: ويلكم اسرّحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياغًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شِباعًا لُبْنًا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته [فطمته]، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جَفْرًا [قويًا]. قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته. فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت بُنيّ عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردهه معنا).

ثم ذكرت حليلة قصة شق صدره وما فيها من معجزة.

ومع ما قيل في إسناد هذا الخبر إلا أن مما لا شك فيه ثبوت استرضاع الرسول ﷺ في بادية بني سعد، وذلك لأن رواية الصحيح [مسلم] تتفق مع رواية ابن إسحاق في أن حادثة شق الصدر قد وقعت للرسول ﷺ وهو صغير مسترضع في بادية بني سعد، وكذلك رواية الحاكم [صحيح]، وأحمد وابن إسحاق [في السيرة، جيد] في حديث: «أنا دعوة أبي إبراهيم.... واسترضعت في بني سعد بن بكر....»، وفي الحديث الذي رواه ابن إسحاق بإسناد حسن، قال وفد هوازن للرسول ﷺ وهو بالجعرانة حين منصرفه من حنين: (إنما في الحظائر - أي: الأسر - عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك...). في هذا الخبر إشارة إلى رضاعة النبي ﷺ في أهل مناطق الطائف، أي في هوازن، التي منها بنو سعد، قوم حليلة بنت أبي ذؤيب [ابن حبان: السيرة؛ ابن هشام].

وروى ابن سعد [برجال ثقات، مرسلًا] أن النبي ﷺ كان مسترضعًا في بني سعد بن بكر. وفي رواية أخرى لابن سعد: أن أم النبي ﷺ دفعته إلى السعدية التي أرضعته فالروايات تعترض.

ويضاف إلى هذا الآثار التي تدل على مجيء أبوي الرسول ﷺ من الرضاعة إليه وتعرفه على الشيباء - أخته من الرضاعة - التي جيء بها ضمن أسرى غزوة حنين وسيأتي ذكرها في أحداث حنين.

وخلال حياته في رعاية حليلة السعدية وقعت للنبي ﷺ إرهاصات دلت على بركته وعناية الله تعالى به، وحفظه له. وأشهر ما روي في ذلك حديث حليلة السعدية الطويل المشهور، الذي فيه أنه بحلول محمد ﷺ عليها، در ثديها اللبن، فارتوى منه محمد وابنها الذي كانت تحمله بعد أن كان يبكي من الجوع لجفاف ثدي أمه، ولا ينام هو وأهله، وامتلاً ضرع راحلتها باللبن بعد أن كان يابسًا، فشبع منها مع زوجها وأضحت الراحلة نشطة قوية، تسير في مقدمة الركب، بعد أن كانت عاجزة تسير في مؤخرة الركبان. وحيثما حلت أغنام حليلة، تجد مرعى خصبًا، فتشبع ولا تجد أغنام غيرها شيئًا، وكان ينمو نموًا سريعًا، لا يشبه نمو الغلمان [ابن هشام].

### حكمة الرضاعة في البادية:

كانت عادة الحضر من العرب أن يسترضعوا أبناءهم في البدو، ابتعادًا بهم عن أمراض المدن، ورغبة في تقوية أجسادهم، وتعويدًا وتربية لهم على الاعتماد على النفس منذ الصغر، بعيدًا عن تدليل الأمهات والجندات وبقية الأقارب، وتقويًا لألستهم من اللحن وغيره من مفسدات اللغة في المدن [البداية؛ الذهبي: السيرة، صحيح].

### • المبحث السادس: الرضاعة في بادية بني سعد وحادثة شق الصدر

وقعت للرسول ﷺ وهو في بادية بني سعد حادثة شق الصدر، كما جاء ذلك صريحاً في رواية أبي نعيم عند ابن كثير [في البداية، بإسناد صحيح]، ونصها: قال رسول الله ﷺ: «... كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بهم [صغار الغنم] لنا، ولم نأخذ معنا زاداً، فقلت: يا أخي اذهب فأنتا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ فقال نعم! فأقبلا يتدراني، فأخذاني فبطحاني للقفأ، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائني بء ثلج فغسلا به جوفي، ثم قال: ائني بء برد، فغسلا به قلبي، ثم قال: ائني بالسكينة فذرهما في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خطه، فخاطه، وختم على قلبي بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخر عليّ بعضهم، فقال: لو أن أمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا فتركاني وفرقت فرقاً شديداً، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت، فأشفقت أن يكون قد لبس بي، فقالت: أعيدك بالله، فرحلت بعيراً لها وحملتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أديت أمانتي وذمتي، وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها، وقالت: إني رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام».

وروى قصة هذا الشق مسلم، باختصار، ولم يصرح بمكان وقوعها، ونصه عن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل رضي الله عنه وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه. فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره - مرضعته) فقالوا: إن محمداً قد قتل. فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره».

لقد سكتت بعض المصادر - منها مسلم - عن تحديد سنة ﷺ حين وقعت له هذه الحادثة لأول مرة. أما البعض الذين حددوا سنه، فلم يتفقوا على سن محددة. فيفهم من رواية ابن إسحاق [في السيرة] أن ذلك كان وعمره ﷺ نحو الستين إذ تقول حليلة: «فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفراً... فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا...» وفي رواية ابن سعد أن القصة وقعت وللرسول ﷺ أربع سنين، وقال بهذا أبو نعيم من طريق ضعيفة أيضًا. ويذكر آخرون أنه كان في الخامسة [دلائل البيهقي] أو بعدها [المواهب].

ونحن نميل مع الزرقاني [في شرحه على المواهب] ونرجح رواية ابن سعد في أنه كان في الرابعة، لأنها السن التي يمكن أن يمارس فيها رعي البهم، ويفهم شيئًا مما يدور حوله. ولقد تكرر حادث شق صدر الرسول الله ﷺ مرات أخرى غير هذه التي في بادية بني سعد. فقد روى أحمد وغيره أن شق الصدر قد وقع له وهو ابن عشر سنين وأشهر. وروى البخاري ومسلم وغيرهما أن شق صدره قد وقع له وقد تجاوز الخمسين من العمر، حين أسري به إلى بيت المقدس. وذكر الذهبي [في السيرة]، الروايات الدالة على أن شق صدره كان مرتين: في صغره ووقت الإسراء به. وهناك من ذكر وقوعها مرة رابعة [دلائل البيهقي].

لقد ذهب بعض أصحاب المدرسة العقلية من المستشرقين والمتأثرين بهم من المسلمين إلى تأويل حادث شق الصدر. فمنهم من قال إنها أسطورة، ومنهم من قال إنها أمر معنوي، و... و... إلخ.

ومن أوجز ما قيل في حادثة شق الصدر قول ابن حجر [في الفتح]: (إن جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصالحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك).

وينبغي على المسلم أن يعلم بأن ميزان قبول الخبر إنما هو صحة الرواية، فإذا صحت فلا يجدي البحث بعد هذا عن صرف الكلام إلى غير حقيقته أو تأويله تأويلاً عقلياً مجموعاً كما يفعل أصحاب المدرسة العقلية.

### حكمة شق الصدر:

- ١ - يبدو أن هذه الحادثة كانت إعلاناً لرفعة شأن الرسول ﷺ والتهيئة للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته. إنها إذاً عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي، ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي برفعة الشأن بين أبصار الناس وأسماعهم - كما قال البوطي.
- ٢ - فيها بيان إعداد الله تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ لتلقي الوحي عنه.
- ٣ - تشير الحادثة إلى تعهد الله ﷻ نبيه عن مزلق الطبع الإنساني، ووساوس الشيطان، وهي حصانة أضفاها الله ﷻ على نبيه محمداً ﷺ.

### البحث السابع: رحلته إلى الشام

روى الترمذي [بسنده صحيح] بسنده إلى أبي موسى الأشعري، أنه قال: «خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش. فلما أشرفوا على الراهب - يعني بحيرى - هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم، قال: فنزل وهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، بعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: وما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه. ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به - وكان هو في رعية الإبل -

قال: أرسلوا إليه، فأقبل وغمامة تظله، فلما دنا من القوم قال: انظروا إليه عليه غمامة، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء - ظل - شجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، قال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. قال: فيينا هو قائم عليهم وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه، ثم التفت فإذا هو بسبعة من الروم قد أقبلوا، قال: فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا لأن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس، وإنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: فهل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: لا، إنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس رده؟ فقالوا: لا. قال: فبايعوه وأقاموا معه. قال: فقال الراهب: أنشدكم الله! أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى رده وبعث معه أبا بكر وبلالاً، وزوده الراهب من الكعك والزيت».

اختلف العلماء في هذا الأثر، فقد حسنه الترمذي وصححه الحاكم، والألباني [في دفاع]، وابن حجر. وقال ابن حجر: (رجاله ثقات، وليس فيه سوى هذه النقطة - أي ذكر أبي بكر وبلال - فيحتمل أن تكون مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهما من أحد رواته). وقال ابن القيم [في زاد المعاد]: (إن هذه النقطة من الغلط الواضح).

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] القصة بنحو سياق الترمذي، وليس فيه ذكر أبي بكر وبلال، ولكنها بدون إسناد، فيستأنس بروايته لإمامته في المغازي، ويكاد يكون لكل رواياته غير المسندة أصل.

وروى الأموي [كما في البداية] أن الرسول ﷺ سافر مع عمه الزبير في تجارته إلى اليمن، عندما كان له من العمر بضع عشر سنة.

وذكروا أنهم رأوا منه آيات في تلك الرحلة، من ذلك: إن فحلاً من الإبل كان يقطع الطريق في واد يمرّون عليه، فلما رأى الفحل رسول الله ﷺ برك حتى حك بكلّكليه [صدره] الأرض، فركبه رسول الله ﷺ. وأنه اعترضهم سيل عرم فأيبسه الله تعالى حتى جاوزوا الوادي.

### الحكمة من أقوال أهل الكتاب في صفة محمد ﷺ:

إن في قصة الراهب بحيرى مع الرسول ﷺ دليل على معرفة أهل الكتاب صفة رسول الله ﷺ وزمانه كما هي عندهم في كتبهم، وهي تفسير لنا قوله تعالى في اليهود: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

روى البخاري من حديث عطاء بن يسار، أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه كان يقول إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، هي في التوراة: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وحرزاً للأُميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك: المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ولن أقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً، وأذناً صماً، وقلوباً غلفاً).

ولقد كان سبب إسلام سلمان الفارسي وغيره رضي الله عنهم، تتبع خبر النبي ﷺ وصفاته من أحبار اليهود ورهبان النصارى.

ومن المعلوم أن أهل الكتاب حاولوا طمس هذه الحقيقة فيما بعد، كما حكى ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴿البقرة: ٧٩﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥]. ولم يوفقوا في طمس كل الحقيقة كما هو واضح من عبارات وردت في بعض أناجيل النصارى - مثل برنابا - خاصة ببيان اسم النبي ﷺ المنتظر وصفته وزمانه ومكانه.

ومن كتب مباشرة في موضوع بشارات التوراة والإنجيل بنبوة ورسالة محمد ﷺ:

(١) الأستاذ إبراهيم خليل أحمد، القس المصري - سابقاً - إبراهيم خليل فيلبس، الذي هداه الله إلى الإسلام منذ أكثر من أربعين سنة، بعد أن قام بدراسة مقارنة لما في الإسلام، وما في الديانات السماوية السابقة عليه. ونشرها في كتاب عنوانه: (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن).

وقد مكنته معرفته العميقة بالعهد القديم [التوراة] والجديد [الإنجيل] من إجراء الدراسة الجادة التي قادته في النهاية إلى أن الإسلام هو الحق، فاعتنقه، وأصبح من دعائه. ومما قاله في دراسته القيمة المذكورة: (نستطيع بعد هذه الدراسة التحليلية أن نضع الصورة الكاملة التي نستمدتها من نصوص الكتاب المقدس، والتي لم يطرأ عليها تغيير ولا تبديل ولا تحريف، لأن الله شاء فحفظها حرصاً على نبيه محمد ﷺ).



## الفصل الأول: من المولد إلى المبعث

ومن ثم إننا نحصل على تصور معين لصورة الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، هذا الرسول بدا شاخًا بشيمه السماء، وهي من شقين:

(أ) أنه الرسول النبي الخاتم، ولا نبي بعده.

(ب) أنه رسول الله للعالمين كافة للأسباب التالية:

- ١- لأنه متمكن ورحيم.
- ٢- لأنه مؤسس لأمة على الحق والبر.
- ٣- لأنه بفضل الله نور للأمم.
- ٤- لأنه وثيق الصلة بسلالة قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. وهذه الحقائق مؤسسة على سفر أشعيا ٤٢: ١-١١:
- ٥- لأنه سليل إسماعيل، وإسماعيل أخو إسحاق، فهو عم العبرانيين كافة.
- ٦- لأن فيه يتحقق مواعيد الله لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.
- ٧- لأن فيه تتبارك كل شعوب الأرض.
- ٨- لأنه الوارث الحقيقي لإسماعيل، وإسماعيل هو بكر إبراهيم عليهما السلام فله النصيب المضاعف.
- ٩- لأنه يتلقى الوحي مباشرة من الله عز وجل. وهذه الحقائق مؤسسة على سفر التكوين ١٧: ٢٠-٢٢: ١٦-١٨: وسفر التثنية ٢١: ١٥-١٧-١٨: ١٩:
- لأنه يأتي على أثر اختتام رسالة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام
- لأنه يعزي ويرشد جماعة المؤمنين من أتباع المسيح (الباراقليط) Paraclete.

- لأن أفعاله وأقواله وخصاله تنبؤ أنه المحمد (The Praised one (Pericyte).
  - لأنه الصادق الأمين، وشهرته ذائعة في العالمين بالصدق والأمانة.
  - لأنه يتلقى الوحي مباشرة من الله ﷻ.
  - لأن رسالته خالدة أبدية.
  - لأنه يرشد إلى الحق... إلى جميع الخلق.
  - لأنه يدافع عن المسيح عيسى بن مريم وأمه (ذاك يمجدني) ويدفع عنهما الشبهات.
- هذه الحقائق مؤسسة على إنجيل يوحنا ١٤: ١٦، ١٧-١٤: ٤٥: ٢٦ إنجيل يوحنا ١٥: ٢٦، ٢٧- إنجيل يوحنا ١٦: ١٣، ١٤.
- ولتصفية هذه الشواهد في تركيز وإيجاز أوضح فإن هذا النبي الخاتم يختلف عن الآخرين من أنبياء العبرانيين في ثلاثة وجوه حيوية ورئيسة على الأقل:
- ١- أنه سيكون صاحب رسالة عالمية.
  - ٢- أنه سيصبح خاتم النبيين ولا نبي بعده ولا نبوة بعده.
  - ٣- أنه من ذرية إسماعيل ﷺ، الذي خلعت عليه بنو إسرائيل (العرب)، وأنه سليل قيدر بن إسماعيل.
- هذه الحقائق مؤسسة على إنجيل يوحنا ١٦: ١٢-١٤، وسفر إشعياء ٦٠: ١-٧).
- وذكر الأستاذ إبراهيم في كتابه هذا أمثلة كثيرة لبشارات من التوراة والإنجيل بنبوة ورسالة محمد ﷺ.
- والكتاب جدير بالقراءة لأهميته في إجلال الحقائق الغائبة عن الناس.

وصدق الله العظيم القائل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، والقائل: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

(٢) الدكتور الشفيع الماحي أحمد، وعنوان كتابه: (محمد ﷺ في بشارات التوراة والإنجيل)، نشر مركز البحوث التربوية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، الرياض، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ١٧٠ صفحة. هدف ببحثه إلى عرض بشارات أنبياء بني إسرائيل بمقدمه ﷺ، وكما وردت في التوراة والإنجيل، وذلك من حيث الزمن الذي سيظهر فيه، والأرض التي يبعث منها، واسمه، وصفاته وأحواله، ومنهج رسالته الخاتمة، وأمتة، وأخيرًا دوام دولته.

(٣) أحمد ديدات: (ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ)، ترجمة إبراهيم خليل أحمد، القاهرة، دار المنار، ١٩٨٩م.

(٤) محمود الشرقاوي: (محمد ﷺ في بشارات الأنبياء)، القاهرة، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٧م.

(٥) رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي: (إظهار الحق)، دراسة وتحقيق وتعليق الدكتور محمد أحمد عبد القادر ملكاوي، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، السعودية، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م في (٤) مجلدات. تناول المسلك السادس من الباب السادس، الجزء الرابع (إخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته ﷺ)، [ص ١١١٦ - ١١٩٨]، وعد من البشارات ثمانية عشر بشارة، معتمداً على نصوص من التوراة والإنجيل. وكان تحقيق الدكتور الملكاوي رسالة علمية حصل بها على الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، وعمل معنا بقسم الثقافة الإسلامية، جامعة الملك سعود.

لم يكن أهل الكتاب وحدهم الذين كانوا يعرفون اسم وصفة النبي العربي الخاتم، بل شاركهم وسبقهم في هذا غير أهل الكتاب. فقد اطلعت على بحث موثق، باللغة الإنجليزية، ومن مصادر هندية أصيلة، للأستاذين: أنور حسين ووقار عظيم الندوي، بعنوان: (محمد ﷺ في الكتب الهندية المقدسة) [Mohammad (P.B.U.H.) in Hindu, s Sacred Books و خلاصته:

أولاً: إن الاسم (محمد)، ومعانيه وأشكال رسمه ونطقه المختلفة في اللغة السنسكريتية، ذكر في كتب هندية مقدسة، هي:

- .A) Riga Veda, Kand ٥, mandal ٢٧, mantra ١)
- .B) Atherva Veda, Kand ٢٠, Sukt ١٢٧, mantra ٣)
- .c) Bhavishya purana, Kand ٣, Surg ٣ /٣, mantra ٥ and ١٢)
- .D) Srimad Bhagawat, mahtampurana, chapter ٢, ShloK ٧٦)
- .E) Tulas, s Ramacharitamanas, deriving from )  
.Sangrampurana, Kand ١٢, chapter ٦

ثانياً: ذكر الاسم (أحمد) ومعانيه وأشكال رسمه ونطقه المختلفة في اللغة السنسكريتية، ذكر في كتب هندية مقدسة، هي:

- .A) Riga Veda, madal ٨, mantra ١٠)
- .B) Sama veda, prapathak ٢, dashti ٦, mantra ٨)
- .c) Athara Veda, Kand ٢٠, Sukt ١٢٦, mantra ١٤)
- .D) Yajur Veda, Sukt ٣١, mantra ١٨)

ثالثاً: ذكرت هذه الكتب الهندية المقدسة السابقة للكتب السماوية أوصافاً للنبي محمد ﷺ وأحداثاً، طبقت سيرة النبي ﷺ، وهي:

(أ) إنه سيركب الجمل.

(ب) إنه سيتزوج اثنا عشرة امرأة، ذكرهن الباحثان وهن: خديجة وسودة وعائشة وحفصة وزينب بنت خزيمة وأم سلمة وزينب بنت جحش وأم حبيبة وصفية وجويرية وريحانة وميمونة. (ج) سيكون محتوناً وملتحمياً. (د) سيلتقي بعدو تعداده الكلي في المواقع الكبرى ٦٠.٠٩٠، ذكر المؤلفان تفاصيل ذلك. (هـ) سيصعد إلى السماء بسرعة خيالية ويعود إلى الأرض - يعني المعراج.

رابعاً: ذكرت هذه الكتب بعض فضائل أصحاب النبي ﷺ والعدد الحقيقي لبعض فتاتهم أو أصنافهم.

خامساً: ذكرت هذه الكتب معاني اسم والد ووالدة النبي محمد ﷺ. وفي ختام البحث ذكر المؤلفان خمسة مراجع باللغة الأردنية لمزيد من القراءة في هذا الموضوع، وهي:

١) Dr. Kamalakant Tiwari, Kali Yuga Ke Antima Rishi

٢) Pundit Dharam Veda Upadhyay, Antim I Shwer Doot

٣) Veda Prakash Upadhyay, Kalki Avatara

٤) Ibn Akbar Azmi, Mohammad Hindu Kitabon men

ونبه الباحثان إلى أن المعلومات الأساسية لهذا البحث مأخوذة من كتاب ابن أكبر الأعظمي - رقم ٤ - (محمد ﷺ في الكتب الهندية المقدسة)، وهو من منشورات دار الصفة، براتي رابطة، رابطة دوكان رقم ١٤، الطابق الأول، مؤسسة بلازه ٤٠، لاهور.

## • المبحث الثامن: رعيه الغنم في صباه، والحكم من ذلك

روى البخاري بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة». [والقيراط جزء من الدينار أو الدرهم، أو اسم موضع بمكة] (الفتح ١٠ / ٥).

وروى البخاري ومسلم من حديث جابر أن الرسول صلى الله عليه وسلم رعى الغنم.

ومن أبرز الحكم والعبر في هذا الرعي:

١- قال ابن حجر [في الفتح]: (قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقتها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقتها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة...) ثم قال:

(وفي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله، ما كان عليه من عظيم التواضع لربه والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء).

٢- يتجلى لنا في رعيه الغنم الذوق الرفيع والإحساس الدقيق اللذان جعل الله سبحانه بهما نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم. إذ أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما أن أنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب لرفع بعض ما يمكن رفع من مؤنة الإنفاق على عمه الذي وفر له وسائل العيش الكريم، على الرغم من أنه كان ذو عيال كثيرين.

٣- إن الله عز وجل لا يعجزه أن يهيئ لمحمد ﷺ كل وسائل الرفاهية ويغنيه عن الكدح سعيًا وراء القوت، ولكن اقتضت حكمة الله أن تعلمنا أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بجهده، وأن قيمة الإنسان هي فيما يقدمه لمجتمعه من خدمات قدر طاقته.

٤- لن تكون لأصحاب الدعوات قيمة معتبرة عند الناس إذا كان كسبهم من عطايا الناس وصدقاتهم، ولذا فإن صاحب الدعوة أحرى الناس باعتماد على نفسه وجهده الشخصي في معيشتة، والابتعاد عن الاستجداء، حتى لا يكون لأحد عليه منة أو فضل في دنياه، فيعيقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق في وجهه [البوطي: فقه السيرة].

### المبحث التاسع: عناية الله له وحفظه من أمور الجاهلية

لقد شارك الرسول ﷺ في إعادة بناء الكعبة عندما تهدمت. فكان ينقل معهم الحجارة للبناء وعليه إزاره. فاقترح عليه عمه العباس أن يجعل إزاره على منكبيه ليقيه الحجارة. وعندما فعل ذلك، سقط مغشياً عليه، فما رئي بعد ذلك عرياناً.

وكان يوماً ينقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، وذلك عندما كان صغيراً يلعب مع أترابه غلمان قريش، فأخذ إزاره فجعله على رقبته ليحمل عليه الحجارة، فتعرى، وحينها لكمه من لم يره لكمة موجعة، وقال له: «شد عليك إزارك»، فشد عليه، وذلك دون غيره من الغلمان الذين كانوا معه.

وروي أن الله تعالى عصمه مرتين عندما حاول أن يسمر كما يسمر الشباب. ولكن اختلف العلماء في تصحيح هذا الخبر. فبينما صححه الحاكم والذهبي وغيرهما، ضعفه ابن كثير [في البداية] والألباني [في دفاع]، لعلل ذكروها، وحججها قوية.

وخالف الرسول ﷺ قومه من أهل الحرم الذين عرفوا بـ(الحمس)، إذ كان يفيض مع الناس من عرفات حيث كانت الحمس تفيض من مزدلفة (جمع). وقد تعجب جبير

ابن مُطعمٍ من الرسول ﷺ لهذا الفعل، كما روى الشيخان، وكان ذلك توفيقاً من الله تعالى له، كما قال جبير بن مطعم بعد إسلامه، وكما روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن]. [والحمس: هم أهل الحرم ومن ولدوا من العرب من ساكني الحل والحرم ومن دخل معهم من العرب مثل كنانة وجديلة، رأوا أن لهم منزلة فوق منزلة بقية العرب؛ ولذلك ميزوا أنفسهم عنهم بأن تركوا الوقوف بعرفات والإفاضة منها، وقيل: سمّوا حمسًا لأنهم اشتدوا في دينهم على زعمهم، مأخوذ من الحماسة، وهي الشدة].

وجاء الإسلام، فوضع الله تعالى أمر الحمس وما كانت قد ابتدعتها قريش، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وروى البيهقي [في الدلائل بسند حسن] أن الرسول ﷺ ما استلم صنمًا قط، وكان ينهى عن ذلك في الجاهلية. ورفض أن يمس صنم إساف أو نائلة عند طوافه، كما كانت عادة أهل الجاهلية.

وروى ابن إسحاق [في السيرة] أن بحيرى الراهب عندما حلف بالللات والعزى، متابعة لقريش في طريقة حلفهم، قال له النبي ﷺ: «لا تسألني بالللات والعزى شيئًا، فوالله ما أبغضت بغضها شيئًا قط».

وحفظه الله عز وجل من كيد الشياطين، في الجاهلية والإسلام.

ورفض الرسول ﷺ أن يعتكف عند صنم بوانة - حيث كان لقريش عيد عنده مرة كل عام - فغضب منه عمه أبو طالب وعماته غضبًا شديدًا، فعندما هم بمطاوعتهم عصمه الله تعالى من مس الأصنام، حيث تمثل له رجل أبيض طويل منعه من مسها، فلم يشارك في عيد لهم في حياته.

وروى البيهقي [في دلائله، بسند حسن، كما قال طرهوني]، أن ملكين منعه أن يشهد مع المشركين مشاهدتهم، فانتهى عن ذلك.

ومن أبرز الحكم والعبر من أخبار عناية الله وحفظه من أمور الجاهلية:

- ١- إن في هذه الأخبار دليلاً على أن الرسول ﷺ كان مصوناً عما يستقبح من أمور الجاهلية قبل البعثة وبعدها، وذلك من حماية الله تعالى له عما يسيء إلى شخصه ودعوته.
- ٢- إن من الأمور المستقبحة عند الله تعالى التعرّي بحضرة الناس. وقد حرم الإسلام ذلك إلا للضرورة، مثل العلاج ونحوه كما قال ابن حجر في [الفتح].
- ٣- إن عصمة الله تعالى له من ممارسة أفعال الجاهلية لدليل عن تهيئة الله تعالى له لأمر جليل.

### ● المبحث العاشر: حرب الفجار

سميت الحرب التي دارت بين كنانة وقريش من جهة، وقيس عيلان من جهة أخرى بحرب الفجار، لأنهم استحلوا المحارم بينهم كما ذكر ابن حجر [في الفتح]. وكان سببها تافهاً، لم يعد قتل رجل من قريش، تداعى بعده الأحلاف للقتال، كما ذكر ابن هشام [في السيرة].

ذكر ابن إسحاق [في السيرة] أن هذه الحرب عندما هاجت كان لرسول الله ﷺ عشرون سنة. وقال ابن هشام إنها هاجت ولرسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، وأن رسول الله ﷺ شهد بعض أيامهم مع أعمامه، وقال: «كنت أنبل على أعمامي» - أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

ولما كانت حرب الفجار قد استمرت زمناً طويلاً فيمكن الجمع بين قولي ابن إسحاق وابن هشام بأن عمر الرسول ﷺ كان في مبتدئها نحو خمس عشرة سنة، ولذا كان ينبل على أعمامه. وعند انتهائها كان عمره عشرين سنة.

ومما يلفت النظر أنه لم يرد ذكر لاشتراك الرسول ﷺ مباشرة في هذه الحرب وقد كان بلغ سن القتال، كما في رواية ابن إسحاق المذكورة. وعلل السهيلي ذلك لأنها

كانت حرب فجار بين كفار، ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله تعالى هي العليا.

قلت: لو صح حديث نبه على أعمامه، فهو دليل على اشتراكه في الحرب اشتراكاً رمزياً غير مباشر، ويمكن تفسيره بأن الرسول ﷺ اشترك بهذه الكيفية في الدفاع عن المقدسات والمحارم، وخاصة أن قيس عيلان هي المعتدية، وهذا من القيم الإنسانية العليا التي اهتم بها الرسل والمصلحون، أي نصره المظلوم.

### ● المبحث الحادي عشر: شهوده حلف الفضول أو المطيبين

[المطيبيون: هاشم، وزهرة، ومخزوم. قاله بعض رواة حديث أبي هريرة عند البيهقي في الدلائل (٣٨ / ٢)]. وقال البيهقي: (كذا روي هذا التفسير من رجال الحديث، ولا أدري قائله...) وقد سبق القول: إن ابن إسحاق [ابن هشام / ١ - ١٧٩ - ١٨١]، أشار إلى حلف المطيبين، وهو اختلاف قريش بعد قصي: بني عبد مناف ومن حالفهم، وبني عبد الدار ومن حالفهم... فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً عند الكعبة... ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم فسموا بالمطيبين. وتعاهد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة على أن لا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً لعدو، فسموا بالأحلاف...

روى أحمد [في المسند بسند صحيح] أن الرسول ﷺ قال: «شهدت حلف المطيبين مع عمومي وأنا غلام، وما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكته». وقال في رواية البيهقي [في الدلائل بسند قوي]: «ما شهدت حلفاً لقريش إلا حلف المطيبين، وما أحب أن لي حمر النعم وأني كنت نقضته».

قال البيهقي [في دلائله] معلقاً على هذا الحديث: (زعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفضول، فإن النبي ﷺ لم يدرك حلف المطيبين). والراجح عندي قول أهل السير. والبيهقي نفسه يقول في السنن الكبرى إن الرسول ﷺ لم يدرك حلف المطيبين). ذكر ابن الأثير [في النهاية] أنه يمكن الجمع بين رواية أحمد والبيهقي ورواية أهل السير أن حلف المطيبين قد تجدد في حياة الرسول ﷺ وعرف باسم آخر هو (حلف الفضول)، والله أعلم.

وروى الحميدي [كما في البداية لابن كثير، بسند صحيح]، أن رسول الله ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يعز ظالم مظلوماً». وروى ابن إسحاق [في السيرة، بسند مرسل صحيح]، أن الرسول ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت».

لقد عقد هذا الحلف بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم، على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم، [كما روى ابن إسحاق في السيرة]. وكان ذلك في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة، منصرف قريش من حرب الفجار، ولرسول الله ﷺ يومئذ عشرون سنة. وكان أول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ.

وكان سببه، أن رجلاً من زبيد، قدم مكة ببضاعة له، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وكان ذو شرف، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار ومخزوماً وجمحاً وسهماً، فأبوا أن يعينوه على العاص، وزجروه. فلما رأى الزبيدي الشر، رقى على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فقال بأعلى صوته:

«يا آل فهر لمظلوم بضاعته  
ومحرم أشعث لم يقض عمرته  
إن الحرام لمن تمت مكارمه  
ولا حرام لثوب الفاجر الغدر»  
ببطن مكة نائي الدار والنفر  
يا للرجال وبين الحجر والحجر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: «ألهذا مترك؟» فاجتمعت قريش وزهرة وتيم، في دار عبد الله بن جدعان، فتحالفوا وتعاهدوا في ذي القعدة الحرام ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم.

حتى يؤدي إليه حقه ما بلّ بحر صوفة<sup>(١)</sup>، وما رسا ثبير وحرء مكانهما، وعلى التأسى في المعاش. فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول. وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر. ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه [رواه ابن سعد].

ومن أبرز الحكم والعبر من خبر شهوده حلف الفضول:

١- إذا كان بعض أهل الجاهلية يرفضون الظلم بدوافع فطرية أو انسانية فأولى بأهل الإسلام رفضه بدوافع عقدية، لأن الإسلام، جاء حاثاً على عدم الظلم وتمشياً مع الفطرة ومقوماً لها من أي انحراف.

ولا غرابة أن يؤكد الرسول ﷺ على أهمية ذلك الحلف لأن مضمونه هو مضمون ما دعا إليه الإسلام في أمر إحقاق الحق وإبطال الظلم.

٢- إن الدور الذي قام به الزبير في هذا الحلف لدليل على مروءة رجال البيت الهاشمي، وبيان فضلهم على غيرهم في مثل هذه المواطن، وحسبهم فضلاً وشرفاً أن الرسول ﷺ كان منهم.

(١) يعني إلى الأبد، أي: ما قام في البحر ماء ولو قطرة.

### أ- زواجه من خديجة

روى ابن إسحاق أن خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب كانت امرأة حازمة شريفة لبيبة، من أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكان رجال قومها يحرصون على الزواج منها. وكانت تستأجر الرجال من مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم. فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها، من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجرًا إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فوافق، وخرج مع غلام لها يدعى ميسرة. ومن خلال معايشة ميسرة للرسول ﷺ رأى من الآيات والمعجزات ما حكاها لسيدته خديجة، فرغبت في الزواج منه.

ومن تلك الآيات أن الرسول ﷺ عندما قدم بصرى من أرض الشام، نزل في ظل شجرة، فقال نسطورًا الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم قال لميسرة: (أفي عينيه حمرة؟ قال: نعم، لا تفارقه، قال: هو نبي، وهو آخر الأنبياء).

وكان ميسرة يرى ملكين يظلاله إذا اشتدت الهاجرة. وتقول الرواية إن خديجة رأت ذلك عندما دخل محمد ﷺ مكة في ساعة الظهر. وفي القصة أنه وقع بين الرسول ﷺ ورجل تلاح في البيع، فقال الرجل للنبي ﷺ: احلف بالللات والعزى، فقال النبي ﷺ: «ما حلفت بهما قط، وإني لأمرُّ فأعرض عنهما».

وقال لميسرة: (هذا والله نبي تجده أخبارنا منعوتًا في كتبهم). وفي القصة أيضًا أن تجارة الرسول ﷺ ربحت ضعف ما كانوا يربحون، وأضعفت خديجة للنبي ﷺ ضعف ما سمّت له من قبل، وهو أصلاً ضعف ما كانت تعطي لغيره من قريش.

وذكرت خديجة لابن عمها ورقة بن نوفل قول الراهب نسطورًا الذي سمعه منه ميسرة، وهو: «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي»، وما كان يرى ميسرة من إظلال

الملكين له، فقال ورقة: «لئن كان هذا حقًا يا خديجة، إن محمدًا لنبي هذه الأمة، وقد عرفت إنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، هذا زمانه» [رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن].

كان هذا الذي سمعته خديجة من ميسرة وورقة تأكيدًا لما كانت تعرفه من أخلاقه وعلو شأنه، لذا رغبت في الزواج منه، فأرسلت صديقتها نفيسة بنت منية تعرض عليه ذلك، فوافق ﷺ على ذلك، فتم الزواج [رواه المحاملي كما ذكر الذهبي في السيرة].

وقد أخرج البزار والطبراني عن جابر، بسند حسن، أن أختًا لخديجة استكرت رسول الله ﷺ وشريكًا له. فلما قضيا السفر بقي لهما عليها شيء، فجعل شريكه يأتهم ويتقاضاهم، وعندما يطلب من محمد ﷺ أن يفعل مثله يعتذر بحجة أنه يستحي من ذلك. فذكرت ذلك لخديجة فأعجبت به وطلبت منه أن يخطبها إلى أبيها، فقال: «أبوك رجل كثير المال وهو لا يفعل. قالت: انطلق فאלقه وكلمه، ثم أنا أكفيك، وائت عند سكره».

روى ابن إسحاق في السير والمغازي، أن خديجة تزوجت قبل الرسول ﷺ، عتيق ابن عائذ المخزومي فولدت له امرأة، ومن بعده تزوجت أبا هالة بن النباش التميمي، وولدت منه ابنا هندا وامرأة، ومات أبو هالة في الجاهلية. [قاله ابن حجر في الفتح. وعند ابن سعد: ابن عابد].

وذكر ابن سعد أن أول من تزوجها هو أبو هالة، واسمه هند بن النباش بن زرارة، فولدت له رجلاً يقال له هند ثم خلف عليها بعده عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومي، فولدت له جارية يقال لها هند، فتزوجها صيفي بن أمية بن عابد بن عبد الله. قلت: ولمحمد بن صيفي ترجمة في الإصابة والاستيعاب. أما الرسول ﷺ فكان أول من تزوجها هي خديجة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت، [كما في صحيح مسلم].

وكان ذلك سنة خمس وعشرين من مولده ﷺ في قول الجمهور، منهم ابن إسحاق.

واختلف العلماء في الذي تولى أمر زواجها. فقد ذكر البيهقي أن الذي زوجه إياها هو أبوها خويلد، وهو سكران، وفي نهاية الخبر يقول الراوي - المؤملي - عمر ابن أبي بكر: «والمجتمع أن عمها عمرو بن أسد الذي زوّجها». وقد ضعف الهيثمي هذا الخبر لأن فيه عمر بن أبي بكر - المؤملي - وهو متروك. وذكر ابن إسحاق أن الذي زوّجها هو أبوها خويلد، وقال السهيلي وابن كثير والشامي: إن ابن إسحاق ذكر في السيرة أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذي زوجه، ولكن لم نجد ذلك في المطبوع من سيرة ابن إسحاق. وذكر الواقدي أن عمها عمرو بن أسد هو الذي ولي نكاحها، وخطأ من قال بغير هذا، لأن والدها - كما ذكر - مات قبل حرب الفجار، ووافقه على هذا السهيلي، وابن سيد الناس وابن عبد البر، والشامي.

قال طرهوني أنه إذا ثبت هلاك والدها قبل الفجار فيلزم أن يكون الذي تولى نكاحها هو عمها. والظاهر أن أحاديث ولاية أبيها لنكاحها أقوى، لأنها جاءت من عدة طرق تعضد لترتقي إلى درجة الحسن لغيره، وعلى أقل تقدير تدل على أن للقصة أصلاً، والله أعلم.

وكان الذي ذهب مع الرسول ﷺ لخطبة خديجة، عمه حمزة. لقد كان لخديجة رضي الله عنها مكانة عظيمة عند الرسول ﷺ. ورويت في الصحيحين وغيرهما عدة أحاديث في مناقبها الكثيرة. ولا غرابة في ذلك، فهي ذات الخصال الحميدة التي ذكرنا طرفاً منها. وفوق ذلك فهي التي عرفت بين قومها بـ(الطاهرة العفيفة)، كما ذكر ابن عساكر [في تاريخه]. وهي التي رزق منها الرسول ﷺ جميع أبنائه ما عدا إبراهيم، فهو من مارية القبطية، كما ذكر ابن إسحاق وغيره. والمتفق عليه من أولاده منها: القاسم - وبه كان يكنى - ومات صغيراً قبل المبعث أو بعده، وبناته الأربع: زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم،

ثم فاطمة - وقيل كانت أم كلثوم أصغر من فاطمة - ثم ولده عبد الله، الذي ولد بعد المبعث، وكان يقال له الطاهر والطيب، كما ذكر ابن عساكر ويقال هما أخوان له. ومات الأبناء الذكور صغارًا باتفاق. أما البنات فأدركن البعثة ودخلن في الإسلام، وهاجرن معه ﷺ، كما روى البيهقي [في الدلائل وابن كثير].

وماتت خديجة عن خمس وستين سنة كما روى الواقدي، كما هو المشهور. وكان عمرها عندما تزوجها الرسول ﷺ أربعين سنة، كما هو المشهور [الواقدي].

### ب- حكم وفوائد من هذا المقطع:

- ١- إن في إضلال الملكين له وشهادة الراهب له بالنبوة دليلًا على النبوة.
- ٢- إن في رغبة خديجة الزواج منه دليلًا على ما كان يتميز به الرسول ﷺ من أخلاق عالية.
- ٣- إن الأحاديث الصحيحة الواردة في فضل خديجة دليل على شرفها وعلو مكانتها عند الله تعالى ورسوله ﷺ والناس.
- ٤- لا غضاضة في أن تبدي المرأة الصالحة رغبة الزواج من الرجل الصالح كما فعلت خديجة رضي الله عنها عندما خطبت محمدًا إلى نفسها، رغبة فيه لصلاحه.
- ٥- إن أول ما يدركه الإنسان من هذا الزواج هو عدم اهتمام الرسول ﷺ بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها، فلو كان مهتمًا بذلك كبقية أقرانه من الشبان لطمع بمن هي أقل منه سنًا أو بمن ليست أكبر منه سنًا على أقل تقدير، أو بمن ليست ثيبًا. ويتجلى لنا أنه ﷺ إنما رغب فيها لشرفها ونبيلها حتى إنها كانت تلقب بالعفيفة الطاهرة. ولقد ظل هذا الزواج قائمًا حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عامًا. وقد ناهز هو الخمسين من العمر، وفي تلك الفترة - من فترة الشباب إلى الخمسين - تكون رغبة الرجال في النساء

والميل إلى التعدد لدوافع الشهوة. ولكن الرسول ﷺ لم يفكر في ذلك، ولو شاء لوجد الكثير من النساء الراغبات أو الإماء، دون أن يخرج عن مألوف قومه.

٦- إن في التقاء العفيفة الطاهرة بالصادق الأمين، وإنجاب الذرية الصالحة من هذا الزواج، لمكرمة أكرم الله تعالى نبيه ﷺ بها، ليظل في مكانة اجتماعية مرموقة لا مطعن فيها.

### المبحث الثاني عشر: مشاركته في بناء الكعبة

#### أ- مشاركته في بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود في مكانه:

روى البيهقي [في الدلائل والحاكم والطبري في التفسير، بسند صحيح]: «أن الله أوحى إلى إبراهيم ﷺ أن ابن لي بيتاً في الأرض، فضاقت به ذراعاً، فأرسل الله عز وجل إليه السكينة، وهي ريح [شديدة خجوج] لها رأس، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت، ثم تطوقت إلى موضع البيت تطوق الحية، فبنى إبراهيم، فكان بيني ساقاً كل يوم، حتى إذا بلغ مكان الحجر، قال لابنه: ابغني حجراً، فالتمس حجراً حتى أتاه به، فوجد الحجر الأسود قد ركب، فقال له ابنه: من أين لك هذا؟ قال جاء به من لم يتكل على بنائك، جاء به جبريل ﷺ من السماء فآتمه».

وروى البيهقي [في الدلائل والحاكم، بسند صحيح] من طريق آخر بمعناه، وزاد فيه، أنه عندما انهدم بنته العمالقة، وعندما انهدم للمرة الثانية بنته جرهم وعندما انهدم للمرة الثالثة بنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذ رجل شاب. وروى عبد الرزاق والذهبي بسند صحيح أنه عندما أرادوا هدمه إذ هم بحية على سور البيت فروعتهم، فلم يقدرُوا على هدمه. فاجتمعت قريش عند البيت، وتضرعوا إلى الله ليزيل عنهم هذا البلاء، فأرسل الله طائراً فغرز مخالبه في قفا الحية، ثم انطلق بها يجرها حتى انتهى بها نحو أجياد، فتمكنت قريش من هدم الكعبة لإعادة البناء. وروى الحاكم بسند صحيح أنه عندما

أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود إلى مكانه، اختصموا فيه. فقالوا نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكّة، فكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم، فقضى بينهم أن يجعلوه في مِرْط، ثم ترفعه جميع القبائل.

وروى الإمام أحمد [في المسند بسند حسن]، وأهل السير أن قريشًا عندما اختلفت في وضع الحجر الأسود في مكانه، قالوا: اجعلوا بينكم حكمًا، فقالوا أول رجل يطلع من الفج، فجاء رسول الله ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم، فرفعوا نواحيه، فوضعه النبي ﷺ في مكانه المطلوب.

ولولا حكمة الله عز وجل وهداية رسوله ﷺ إلى هذا الحل، لسفكت الدماء؛ فقد روى ابن إسحاق أن الخلاف في وضع الحجر الأسود قد وصل إلى أن قرّبت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا، دون أن يردها إلى الوفاق أي رأي أو تدبير، حتى كان خمود نار الفتنة على يد رسول الله ﷺ.

وروى عبد الرزاق بسند صحيح، أنه عندما أكملوا البناء ساق الله إليهم سفينة من أرض الروم، فانكسرت قريبًا من جدة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا روميًا نجارًا عندها، فأخذوا الخشب بإذنه، وقدموا بالخشب والنجار الرومي، ليبنى لهم به عرش الكعبة.

وقد جزم عبد الرزاق - وسنده صحيح - وابن إسحاق، أن عمر النبي ﷺ إذ ذاك كان خمسة وثلاثين عامًا، وهو المشهور.

ب- حكمة وعبر من هذا المقطع:

- ١- إن قبول قريش تحكيم الرسول ﷺ في أمر وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت الحرام، ووصفهم له بالأمين، دليل على تربية الله ﷻ لنبيه صلى الله عليه على مكارم الأخلاق التي كان من بينها الصدق والأمانة.
- ٢- إن الاقتراح الذي توصل إليه الرسول ﷺ لحل هذه الأزمة كان بتوفيق من الله تعالى ليلفت أنظار الناس إلى ما سيختاره له الله من القيام بأمر أكبر من هذا لتوحيد الناس... وهو الإسلام.
- ٣- جاء إسهام الرسول ﷺ في القضايا الكبرى التي عاشتها مكة آنذاك، متنوعاً شاملاً مغطياً شتى مساحات العمل البشري الجماعي، وكأنه أريد له أن يجرب كل شيء، وأن يسهم عاملاً في كل اتجاه، وأن يبني عبر نشاطاته المتنوعة جميعاً شخصية قادرة على التصدي لكل مشكلة، والإسهام الإيجابي الفعال في كل ما من شأنه أن يعيد حقاً أو يقيم عدلاً... وكان إسهامه في بناء الكعبة، وحل مشكلة وضع الحجر الأسود التي كادت تؤدي إلى فتنة، اثنين من بين عدة أنشطة متنوعة قام بها الرسول ﷺ فأكسبته خبرة في مجال التعامل مع الأحداث [انظر: د. عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ص ٤٨-٤٩].

● المبحث الثالث عشر: من إرهابات النبوة:

● أ- من إرهابات النبوة عند أهل الكتاب وكهان العرب عندما

قارب زمن بعثة الرسول ﷺ:

عقد ابن إسحاق [في السيرة] فصلاً عن أخبار الكهان من العرب والأخبار من اليهود والرهبان من النصارى بقرب مبعث النبي ﷺ.

ومما روي في أمر كهان العرب بطرق صحيحة حديث ابن عباس - عند مسلم - في رمي الجن بالنجوم قطعاً لمصدر كهانة العرب في الجاهلية. وخبر سواد بن قارب

الأزدي السدوسي الكاهن مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما روى البخاري وابن إسحاق، حيث كان سواد يقول: «إن الشياطين قد سكتت ذليلة مغلوبة قبيل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم»، وكان سبب إسلامه هو ما رواه من إرهاصات عن طريق ممارسته الكهانة والاستعانة بالجن في ذلك، كما جاء ذلك في خبره.

وفي القصة [عند أحمد في المسند والبيهقي في الدلائل]، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يحدث الناس: «والله إني لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش قد ذبح له رجل من العرب عجلًا، فنحن ننتظر قسمه ليقسم لنا منه إذ سمعتُ من جوف العجل صوتًا ما سمعت صوتًا قطُّ أنفَذَ منه، وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شيعه، يقول: يا ذريحُ، أمرُ بُجيح، رجل يصيحُ، يقول: لا إله إلا الله».

روى ابن إسحاق بسند حسن، في إخبار يهود برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهوديًا كان من جيران بني عبد الأشهل، حدثهم عن البعث والجزاء فاستنكروا ذلك وطالبوه بآية ذلك، فقال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده جهة مكة واليمن.

وروى ابن إسحاق أن من أسباب إسلام ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد ابن عبيد من يهود بني هذل، إخوة بني قريظة، ما أخبرهم به يهودي يقال له ابن الهبيان، قدم من الشام إلى المدينة قبيل البعثة بسنين. قال لهم إن سبب قدومه المدينة توقع خروج نبي فيتبعه، ودعا اليهود إلى اتباعه وألا يسبقهم إليه أحد، وذكر لهم بعض صفاته. فعندما تأكدوا منها يوم حصار قريظة أسلموا.

وفي قصة سلمان الفارسي [عند البخاري وابن إسحاق]، وخروجه من بلاده بحثًا عن الدين الحق وتقلبه في الرق إلى أن جاء إلى المدينة، وقصة ورقة بن نوفل - عند البخاري

وأحمد في المسند والحاكم - وزيد بن عمرو بن نفيل وخروجها من مكة بحثاً عن الدين الحق حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، قال الراهب لزيد: (إن الذي تلتمس يوشك أن يظهر في أرضهما). في هذه القصص وغيرها دليل على ما كان سائداً عن اليهود والنصارى في ذلك الوقت، من اعتقاد بقرب ظهور النبي ﷺ. وللصفات التي عرفت من الأخبار والرهبان عن الرسول ﷺ أسلم سلمان الفارسي.

وجاء في صحيح الأخبار [مثل الذهبي في السيرة وابن حبان في الصحيح والطبراني والحاكم] أن الله تعالى لما أراد هدي زيد بن سعدة - الحبر اليهودي - قال: «إنه لم يبق من علامات النبوة إلا وقد عرفت في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهلة، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلاً»، فخالط الرسول ﷺ حتى تأكد من هاتين الخصلتين. [يأتي تفصيل هذا الخبر في فصل الشمائل]

وجاء في الأخبار [كما عند ابن سعد وأبي نعيم في الدلائل، بسند مقبول عند ابن حجر] أن سبب إسلام عامر بن ربيعة العدوي هو ما كان يقوله زيد بن عمرو بن نفيل من أنه ينتظر نبياً من ولد إسماعيل من بني عبد المطلب اسمه أحمد، ولا يرى أن يدركه، وكان ينعته للناس، لما عرفه عنه من أهل الكتاب.

وروى أبو نعيم [في دلائله، بإسناد حسن] أن قس بن ساعدة الإيادي كان يقول: «أقسم قس قسماً براً لا إثم فيه، ما لله على الأرض دين هو أحب إليه من دين أظلكم إبانته وأدرككم أوانه، طوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن أدركه ففارقه...».

وقال المفسرون - مثل الطبري - وأهل السير - مثل ابن إسحاق - إن الآية: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا

جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ [البقرة: ٨٩] نزلت في اليهود الذين كانوا في صراع مع الأوس والخزرج. وإذا نال الأوس والخزرج منهم قالوا لهم إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما ظهر اتبعه الأوس والخزرج وكفرت به اليهود.

وقصة هرقل مع أبي سفيان [في الصحيحين] تدل على ذلك، خاصة قول هرقل لأبي سفيان: «فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين».

وجاءت الأحاديث النبوية مصرحة بأن محمداً ﷺ قد كتب نبياً منذ القدم. فقد روى الإمام أحمد [في مسنده بسند صحيح]، والترمذي [في سننه بسند صحيح]، قول الرسول ﷺ: إنه كان نبياً «وآدم بين الروح والجسد». وعند أحمد من حديث العرياض بن سارية: «وإن آدم لمُنْجَدِلٌ في طينته». وعند أبي نعيم [في الدلائل]، قال: قال رسول الله ﷺ: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث».

### ب- بعض الحكم والعبر:

١- وخلاصة القول إن علماء اليهود والنصارى كانوا يعرفون الرسول ﷺ قبل مبعثه مما يجدونه من أوصافه وزمان خروجه في التوراة والإنجيل. وقد أشار القرآن إلى ذلك في عدة آيات. [مثل الآية ١٤٦] من سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ولذلك أسلم بعض اليهود وفي مقدمتهم عبد الله بن سلام وبعض النصارى وفي مقدمتهم النجاشي ملك الحبشة. وإن ممن امتنع عن الدخول في الإسلام لأسباب مادية أو سياسية كما هو الحال في قصة حبي بن أخطب وهرقل ومقوقس مصر.

٢- ويضاف إلى هذا ما سبق أن قلناه عند الكلام عن رحلته ﷺ إلى الشام والحكم الاستفادة من ذلك.

### المبحث الرابع عشر: التحنث في غار حراء

كان رسول الله ﷺ ينفرد إلى نفسه متقرباً إلى الله عز وجل في غار معروف بغار حراء. وقد حبب الله إليه ذلك، لم يأمره بذلك أحد. فكان يبقى في هذا الغار الأيام والليالي إلى أن أتاه الوحي فيه [كما في البخاري]، وكانت سنة آنذاك أربعين سنة.

وكان يمكث في حراء شهراً من كل سنة، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية، كما ذكر ابن إسحاق، ويطعم من جاءه من المساكين. وإذا قضى جواره من شهره هذا، كان أول ما يبدأ به الطواف بالكعبة، وكان ذلك الشهر رمضان.

وقد اختلف العلماء في تعبه ﷺ قبل البعثة، هل كان على شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ فقيل شرع نوح، وقيل شرع إبراهيم، وهو الأشبه الأقوى، وقيل موسى، وقيل عيسى، وقيل كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به. ولبسط هذه الأقوال ومناسبتها مواضع أخرى، مثل كتاب البداية. وذكر ابن حجر - في الفتح - عن بعض المشايخ أنه كان يتعبد بالتفكر.

وذكر قول ابن أبي جمرة - في بهجة النفوس - أن الحكمة في تخصيصه بالتخلي في حراء أن المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات: الخلوة، والتعبد، والنظر إلى البيت الحرام.

ولم تنازع قريش النبي ﷺ في غار حراء مع مزيد الفضل فيه على غيره، لأن جده عبد المطلب أول من كان يخلو فيه من قريش، وكانوا يعظمونه لجلالته وكبر سنه، فتبعه على ذلك من كان يتأله. [الفتح].

## المبحث الخامس عشر: الإرهاصات قبيل البعثة

### أ- من إرهاصات النبوة قبيل البعثة:

قالت عائشة رضي الله عنها: «إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث - يتعبد - فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله. ويتزود لذلك. ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء...» [متفق عليه].

وروى مسلم والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأعرف حجراً بمكة، كان يسلم عليّ قبل أن أبعث. إني لأعرفه الآن».

وروى ابن عساكر أن ملكين أتياه وهو ببعض بطحاء مكة، فقال أحدهما للآخر: «زنه برجل، فوزنه، فرجح به محمد ﷺ إلى أن وزنه بألف من أمته فرجحهم، ثم قال له: لو وزنته بأمته لرجحها. ثم قال أحدهما للآخر: شق بطنه، فشقه، ثم أخرج منه فعم - حظ - الشيطان، وعلّق الدم، فطرحها، فقال أحدهما للآخر: اغسل بطنه غسل الإناء، ففعل، ثم دعا بالسكينة فأدخلت قلبه، ثم قال أحدهما للآخر: خط بطنه، ففعل، وجعلا الخاتم بين كتفيه، ثم وليا عنه، وكأننا يعاين الأمر معاينة».

وروى البيهقي [في دلائله]، أنه خرج من عند خديجة، ثم عاد فأخبرها أنه رأى بطنه قد شق، ثم طهر وغسل، ثم أعيد كما كان، فقالت: «هذا والله خير فأبشر».

وقال النبي ﷺ لخديجة [كما روى أحمد في مسنده بسند حسن]: «إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً وإني أخشى أن يكون بي جنن». قالت: «لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا ابن عبد الله»؛ ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت ذلك له، فقال: «إن يك صادقاً فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعزره، وأنصره، وأومن به».

## ب- العبر والعظات:

١- إن الآيات والمعجزات التي وقعت للرسول ﷺ من قبيل الإرهاصات الدالة على تميزه عن غيره من الحنفيين الذين عاصروه، وأن الله عز وجل سيختاره هو بالذات لأمر عظيم.

٢- تقرير أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، إذ إن فترة الوحي كانت ثلاثاً وعشرين سنة منها ستة أشهر كانت مناماً.

٣- استحباب العزلة لفترات تعين المسلم على التفكير في أحوال المجتمع إذا سادت فيه الجاهلية والفساد. أما الاعتزال الدائم للمجتمع والذي ابتدعته جماعة من الجماعات الدينية في زماننا هذا فهو مخالف لسنته ﷺ العملية والقولية. فلم يعرف عن الرسول ﷺ أنه اعتزل المجتمع، وقال في نبذ مثل هذه الاتجاهات:

«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» [أحمد: المسند، بسند صحيح].

«المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس» [الدارقطني، بسند صحيح].

## المبحث السادس عشر: الوحي

### أ- نزول الوحي:

روى الشيخان أن أمين الوحي فجأ الرسول ﷺ لأول مرة في يوم الاثنين، الحادي والعشرين من شهر رمضان، من العام الأربعين لميلاده ﷺ، بينما كان يتحنث بغار حراء. وقال له: اقرأ، قال في الحديث: «فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني الثانية فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني الثالثة حتى

بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾ [العلق: ١] حتى بلغ إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق: ٥]. قالت عائشة رضي الله عنها - راوية الحديث - : «فرجع بها ترجفٌ بَوَادِرُهُ حتى دخل على خديجة، فقال زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الرِّوْعُ، فقال: يا خديجة، ما لي! وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا، فوالله لا يُخْزِيكَ اللهُ، إنك لتصل الرِّحْمَ وتصدق الحديث وتحمّل الكَلَّ [الذي لا يستقل بأمره] وتكسبُ المعدوم، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وكان امرأتنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت: اسمع من ابن أخيك، فقال: يا ابن أخي ما ترى؟ فأخبره. فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً أكون حين يخرجك قومك، قال: أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأتي أحد بما جئت به إلا عودي أو أودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم يلبث ورقة أن توفي».

أما الخبر الذي أورده ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] عن كيفية بدء الوحي، والذي قال فيه: «فجاءني جبريل وأنا نائم بنمطٍ من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ...» فهو يخالف في الظاهر حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري ومسلم الذي فيه التصريح بأن مجيء الوحي كان في حالة اليقظة، وأن الرؤيا الصادقة كانت قبل نزول الوحي، ولذا قال السهيلي: (وقد يمكن الجمع بين الحديثين بأن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل في المنام قبل أن يأتيه في اليقظة، توطئةً وتيسيراً عليه ورفقاً به، لأن أمر النبوة عظيم، وعبؤها ثقیل، والبشر ضعيف).

وقال ابن كثير [في البداية] بما قاله السهيلي، ثم زاد: (... وقد جاء مصرحاً بهذا في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري، إنه رأى ذلك في المنام، ثم جاءه الملك في اليقظة»،

وقال في مكان آخر: «ويحتمل أن هذا المنام كان بعدما رآه في اليقظة صبيحة ليلته، ويحتمل أنه كان بعده بمدة، والله أعلم».

### ب- العبر والعظات والدلائل:

١ - دل تصرف خديجة إزاء ما وقع للرسول ﷺ في الغار على رجاحة عقلها، وحسن تصرفها، وفضلها، وسلامة فطرتها.

٢ - دل تحليل ورقة لظاهرة ما حدث للرسول ﷺ في الغار على صحة علمه وفضله.

٣ - يتبين من رؤية الرسول ﷺ جبريل بعينية، يقظة، أن ظاهرة الوحي ليست أمرًا ذاتيًا داخليًا مرده إلى حديث النفس المجرد أو ما شابه ذلك من التمحللات، وإنما هي استقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات. وضم الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات، قائلًا في كل مرة: «اقرأ...» يعتبر تأكيدًا لهذا التلقي الخارجي ومبالغة في نفي ما قد يتصور من أن الأمر لا يعدو كونه خيالًا داخليًا فقط.

٤ - أ - يدل خوفه مما حدث له مع جبريل على أنه ﷺ لم يكن متوقعًا الرسالة التي سيدعى إلى حملها وبثها في العالم. وبذلك يتضح لكل عاقل مفكر أن ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أن يخطر في باله، وإنما طرأت طروءًا على حياته وفوجئ بها دون أي توقع سابق. ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل والتفكير إلى أن تتكون في نفسه - بطريقة الكشف التدريجي المستمر - عقيدة يؤمن بالدعوة إليها!، كما يدعي بعض المستشرقين مثل كارادوفو الفرنسي.

ب - الله ﷻ قادر على أن يربط على قلب رسول الله ﷺ ويطمئن نفسه بأن الذي كلمه ليس إلا جبريل - ملك من ملائكة الله ﷻ جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس - ولكن الحكمة الإلهية الباهرة تريد إظهار الانفصال التام بين شخصية

محمد ﷺ قبل البعثة وشخصيته بعدها، وبيان أن شيئاً من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يكن في ذهن الرسول ﷺ مسبقاً ولم يتصور الدعوة إليه سلفاً.

ج- إن فيما ألهم الله ﷻ به خديجة من الذهاب به ﷺ إلى ورقة، تأكيداً من جانب آخر بأن هذا الذي فوجئ به ﷺ إنما هو الوحي الإلهي الذي كان قد أنزل على الأنبياء من قبله، وإزالة لغاشية اللبس التي كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصورات المختلفة عن تفسير ما رآه وسمعه [البوطي].

د- لو كان الوحي أمراً ذاتياً لما جاءت آيات في القرآن تعتب عليه أو تلومه لبعض التصرفات. مثل: عتابه له حين أعرض عن صاحبه عبد الله بن أم مكتوم، حين حضر إليه ليعلمه مما علمه الله، وفي حضرته بعض كبار كفار قريش. وسميت سورة في القرآن بمضمون هذا الموقف. وهي سورة (عبس)، وعتابه له في أسرى بدر كما سيأتي ذكره، وفي زواجه من زينب بنت جحش رضي الله عنها كما سيأتي ذكره، وعتابه له حين أذن لمن طلب منه التخلف عن غزوة تبوك: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، وعتابه حين أراد أن يعطي كفار قريش ما أرادوا، حين طلبوا عدم الجلوس مع الموالي، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

هـ- لو كان الوحي أمراً ذاتياً لما خاطب الله تعالى نبيه بقوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]

و- لو كان الوحي أمراً ذاتياً لما كان الرسول ﷺ يسكت عن إجابات السائلين لفترة زمنية قد تطول وقد تقصر، ولما عانى من نتائج بعض الأحداث، مثل حادث الإفك الذي استمرت محنته لشهر... إلخ.

٥- اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الرسول ﷺ أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وفي ذلك إبعاد لشبهة الشك في مصدر القرآن، وفي ذلك يقول المولى رحمه الله:  
 ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَّا زَتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

## المبحث السابع عشر: انقطاع الوحي

### أ- فترة انقطاع الوحي ثم تتابعه:

انقطع جبريل عليه السلام عن النبي ﷺ بعد هذا فترة من الزمان، اختلف العلماء في مدتها. قال البوطي: (والراجح ما رواه البيهقي من أنها كانت ستة أشهر). وقيل إن الأقرب إلى الصواب هو ما روي عن ابن عباس أن فترة انقطاع الوحي كانت أربعين يوماً، وقيل إنها كانت أياماً. وجزع الرسول ﷺ من هذا الانقطاع. [ولم يذكر البوطي مكان الشاهد من مؤلفي البيهقي: الدلائل والسنن الكبرى، أو غيرهما. والذي وقفنا عليه في السنن الكبرى (٦ / ٩) أن الوحي انقطع، ولم يذكر أنها ستة أشهر.]

بعد فترة الفتور أو الانقطاع المذكورة، نزل عليه الوحي مرة أخرى. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله ﷻ: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلْمُذْتَبِرِينَ ۝١ قُرْآنَ ذَرِّيرٍ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥]، فحمي الوحي وتواتر» [متفق عليه].

### ب- الحكمة من هذا الانقطاع:

١- ليحصل للرسول ﷺ التشوق إلى العود بعد أن ثبت لديه الحقيقة أنه أضحى نبياً [ابن حجر: الفتح].

٢- إن في انقطاع الوحي ثم استمراره تأكيداً للحقيقة التي ذكرناها، وهي أن الوحي ظاهرة منفصلة عن ذات الرسول ﷺ.

## المبحث الثامن عشر: مراتب الوحي

قال ابن القيم في زاد المعاد: إن الله تعالى قد كمل لنبيه من مراتب الوحي مراتب عديدة: أحدها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحي الله إليه، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح...» [متفق عليه].

الثانية: ما كان يلقيه الملك في رُوعه وقلبه من غير أن يراه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن روح القدس نفث في رُوعي إنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب،... الحديث» [الحاكم وغيره، صحيح بشواهده].

الثالثة: أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً [مسلم].

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض... [متفق عليه].

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما في سورة النجم [مسلم].

السادسة: ما أوحاه الله تعالى وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله عز وجل إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا

﴿النساء: ١٦٤﴾ وثبوتها لنبينا صلى الله عليه وسلم وهو في حديث الإسراء والمعراج، [من رواية مسلم]، الذي فيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «.... ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف

الأقلام»، ويفهم من حديث مراجعة محمد ﷺ ربه عز وجل في أمر تخفيف الصلاة من خمسين إلى خمس، أنه كان يكلمه بلا واسطة.

## • المبحث التاسع عشر: مراتب الدعوة ومراحلها

### • أ- مراتب الدعوة:

ذكر لها ابن القيم [في زاد المعاد] خمس مراتب:

الأولى: النبوة، الثانية: إنذار عشيرته الأقربين، الثالثة: إنذار قومه، الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله، وهم العرب قاطبة، الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

### • ب- مراحل الدعوة خلال حياة الرسول ﷺ:

المرحلة الأولى: الدعوة سرًا، واستمرت ثلاث سنين.

المرحلة الثانية: الدعوة جهراً والكف عن القتال. واستمرت إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهراً مع قتال المبتدئين بالقتال، واستمرت إلى صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: الدعوة جهراً، مع قتال كل من يقف في سبيل سير الدعوة

[البوطي والمباركفوري].

### • وقفت عند فقه هذه المراحل:

ربما يتبادر سؤال إلى الذهن، وهو: هل يجب على دعاة قيام الدولة الإسلامية - خاصة في العصر الحديث - التقيد بهذه المراحل بمداهم الزماني كما وقعت للرسول ﷺ؟ والجواب عن هذا السؤال، وهو أنه ليس عليهم التقيد بهذه المراحل ولا بالمدى الزمني الذي مرت به في حياة الرسول ﷺ. وذلك لأن المدى الزمني لتلك المراحل تقدير رباني وليس جهداً بشرياً فقط. فالتقيد بهذه المراحل لا يتمشى مع مرونة الإسلام في معالجة الأمور ومواجهة الأحداث. والسيرة النبوية التي تمثل حركة

الإسلام تفتح أمام الدعوة نماذج للخيارات المتعددة التي يقدمها المنهج الإسلامي بحركته الفذة الفريدة... وما السرية، أو طلب النصر، أو الهجرة إلا وسائل اتخذها رسول الله ﷺ لنشر دعوته، ضمن ظروف ومواصفات معينة...

فمثلاً نجد في زماننا هذا أن الدول الغربية الديمقراطية لا تحجر أي نشاط لرجال الأديان المختلفة، فلا ضرورة هنا للتقيد بمرحلة السرية في الدعوة. بينما نجد الدول الشيوعية لا تسمح للمسلم بممارسة أي نشاط دعوي أو سياسي، فيضطر أن يستخفي بدينه حتى يتمكن، وهنا تصبح السرية ضرورة اقتضتها ظروف معينة. وإذا اقتضت حكمة الدعوة أن يكون هناك عمل سرّي وآخر علنيّ فلا بأس، وذلك في مثل البلاد التي تسمح بنشاط المسلمين في حدود ضيقة جداً.

وخلاصة القول: إن السرية تقدر بقدرها، حسب ظروف البيئة التي يعيشها المسلم

[زهير سالم: عثرات وسقطات].

## ● المبحث العشرون: بداية الدعوة

### أ- المرحلة الأولى: الدعوة السرية:

استجاب الرسول ﷺ للأوامر الإلهية التي صدرت له بالتبليغ، وقد جاءت هذه الأوامر واضحة في الآيات التي نزلت بعد آيات سورة العلق: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدِيرُ ﴿١﴾ قُرْآنًا ذَرِيَّةً ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِيرُ ﴿٣﴾ وَيُنَابِكُ فَطَهْرُ ﴿٤﴾ وَالرُّجُزَ فَهَجْرُ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ ﴿٧﴾ [المدثر: ١-٧].

لقد لخصت هذه الآيات الكريهات مضمون الدعوة التي أنيط به تبليغها إلى الناس. ولا تكاد الآيات القرآنية التي نزلت في مكة تخرج عن إطارها العام.

ففي قوله تعالى له: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدِيرُ ﴿١﴾﴾، إشارة إلى أن زمان التدثر والخلود إلى الراحة في المضجع بين الزوجة والأبناء قد ولى، وجاء زمان المجاهدة بكل أبعادها، المادية والمعنوية.

وفي قوله: ﴿مُرْفَأَنذِرًا ۝٢﴾، إشارة إلى تكليفه بأمر دعوة كل الناس إلى الإسلام. وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾، إشارة إلى أن ليس في الوجود أكبر من الله تعالى خالق الوجود. ولذا عليه أن يُعلم الناس بهذه الحقيقة ليتواضع الناس كلهم لله الكبير المتعال. وهذا هو التوحيد المطلق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾، إشارة إلى أن الداعية إلى الله ﷻ لا بد أن يبدأ بتطهير نفسه ظاهراً وباطناً حتى يكون المثل الأعلى لمن يدعوهم إلى الطهارة بكل معانيها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾، إشارة إلى أن التوحيد الخالص يقتضي عدم تعظيم أو تقديس أي شيء سوى الله تعالى الخالق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُنُّنَّ سَتَكَبُرُ ۝٦﴾، إشارة إلى أن ما خص به من منع إعطاء الشيء ابتغاء شيء أكثر منه هو أنه مأمور بأجل الأخلاق وأشرف الآداب ليكون مثلاً أعلى للبشرية وهو يدعوها إلى مكارم الأخلاق.

وللقيام بهذه الأمور كان لا بد من ختمها بحقيقة هامة للوصول إلى الأهداف المرجوة من هذه الأوامر، هذه الحقيقة هي أن تحمّل أمانة الدعوة في عناصرها المذكورة لا بد له من الصبر على كل أصناف أذى المعارضين، والصبر على تربية الأتباع، والصبر على الإبتلاء، قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾.

نهض الرسول ﷺ من فراشه وأخذ يدعو إلى ما أمر به سرّاً لمدة ثلاث سنين كما ذكر ابن إسحاق، ولفظه: «وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغني - من مبعثه». ومما يدل على السرية في الدعوة ما جاء في خبر إسلام عمرو بن عبسَةَ رضي الله عنه عند مسلم، حيث قال:

«أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث وهو بمكة وهو حينئذٍ مُسْتَخْفٍ...». وبدأ بالدعوة إلى التوحيد ونبذ كل مظاهر الشرك.

وكان تحركه في هذه الفترة [كما روى ابن هشام] وسط الذين تربطهم به صلوات، مثل زوجته وبناته ومولاه زيد بن حارثة وربيبه علي بن أبي طالب وأصدقائه وكل من يطمئن إلى أنه يكتنم السر. ولهذا يلحظ أن من أوائل الذين دخلوا في الإسلام:

١ - زوجته خديجة رضي الله عنها التي كانت أول من آمن بالله وبرسوله - كما هو مشهور - وهونت عليه أمر الناس، وكانت بذلك أول مَنْ أَمَرَ الرسول ﷺ بتبشيره بالجنة، قال رسول الله ﷺ [في الحديث المتفق عليه]: «أمرت أن أبشر خديجة بيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب». وقد جاءت الأحاديث الصحيحة كثيرة في فضائلها وأخبارها.

٢ - ابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان في حجره، وهو يومئذٍ ابن عشر سنين على أصح الأقوال [ابن إسحاق في السيرة بسند حسن].

٣ - مولاه زيد بن حارثة، الذي قال له الرسول ﷺ عندما جاء أبوه يطلبه [كما في صحيح الترمذي]: «إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق مع أبيك، فقال: بل أقيم عندك»، فأقام عنده وحرره وتبناه، وعرف بـ(زيد بن محمد) حتى نزلت آية: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، وبذلك أبطلت عادة التبني.

٤ - أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو أول من صدق وأسلم من الرجال، وفيه قال الرسول ﷺ لعمر [من رواية البخاري]: «إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق...». وقال [من رواية ابن إسحاق في السير والمغازي بسند منقطع]: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر، ما عتَم حين ذكرته وما تردد فيه». وقال هو عن نفسه عندما اختير خليفة للمسلمين: «أَلَسْتُ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَا؟ أَلَسْتُ أَوْلَى مِنْ أَسْلَمَ؟...» [صحيح الترمذي].

وفي إطار هذه السرية تحرك أبو بكر وسط أقاربه ومواليه وأصدقائه ومن يثق به من قومه. فاستجاب له نفر كريم، منهم: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف - [ابن إسحاق]-، وعثمان بن مظعون وأبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم رضي الله تعالى عنهم أجمعين. [ابن كثير: البداية].

ومن خلال علاقات هؤلاء وغيرهم أخذ الإسلام ينتشر في مكة وخارجها، ودخل فيه أناس من بطون قريش ومواليها كافة.

ومن اشتهروا بين السابقين إلى الإسلام من الموالي: بلال بن رباح وصهيب ابن سنان وعمار بن ياسر ووالده وأمه سمية بنت خياط [أحمد: فضائل الصحابة بسند حسن] [والخطأ المشهور (خياط)].

وفي فترة وجيزة وصل عدد الذين سبقوا إلى الإسلام من بطون قريش إلى أكثر من أربعين نفرًا، كما عدّهم ابن هشام، وأكثر من خمسين كما عدّهم اليعمري - ابن سيد الناس.

٥- وثبت، من رواية أحمد [في المستند بسند حسن؛ وابن سعد (٣/ ٢٣٣)، مرسلاً صحيحًا]، أن ورقة بن نوفل كان من المسلمين الأوائل، وذلك بدليل قول الرسول ﷺ: «لقد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بياض». وقال ﷺ في رواية أخرى [عند أبي يعلى، بسند حسن]: «قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض أبصرته في بطنان الجنة، وعليه السندس»، وقال ﷺ [من رواية البزار بسند جيد، والحاكم بسند صحيح]: «لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين»، وقال: «يبعث يوم القيامة أمة وحدة» [الطبراني، رجال الصحيح].

ويتضح من سجل أسماء السابقين الأولين إلى الإسلام أنهم كانوا من خيرة أقوامهم، ولم يكونوا كما يذكر بعض الكتاب المسلمين وغيرهم أنهم كانوا في

معظمهم خليطاً من الفقراء والضعفاء والأرقاء الذين أرادوا استعادة حريتهم أو كرامتهم.

والقول السديد في هذا هو أن الذين تحملوا القسط الأكبر من التعذيب هم الأرقاء والموالي، وكانت فتنهم على ملاء من الناس، ولذا انتشر أمرهم، بينما امتنع الآخرون بأقوامهم، ومن عذب منهم عذب ضمن قبيلته.

ولذا لم ينتشر أمرهم، ولم يذكروا كثيراً [الشامي: المعين].

وفي هذه المعاني رويت عدة أحاديث، منها ما رواه أحمد [في الفضائل بسند حسن] عن ابن مسعود، قال: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس...».

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] إن قريشاً عدت على من أسلم ووثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم. وذكر أن رجلاً من بني مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد حين أسلم أخوه الوليد يستأذنونه في اتخاذ ما يروونه من وسائل لصدده عن الدين هو ومن أسلم معه من فتية بني مخزوم، الذين كان منهم سلمة ابن هشام وعياش بن أبي ربيعة. فسمح لهم بما يريدون وحذرهم من قتله.

وروى ابن إسحاق [بسند حسن] في قصة هجرة عمر وقصة عياش معه أن قريشاً منعت هشام بن العاص بن وائل السهمي من الهجرة مع عمر وعياش وفتنته فافتتن، واحتالوا على عياش فردوه من المدينة إلى مكة مقيداً.

وروى البخاري أن عمر بن الخطاب كان قبل أن يسلم يوثق سعيد بن زيد، ابن عمه وزوج اخته، ويكرهه ليرجع عن الإسلام. ولم يستطع الرسول ﷺ أن يفعل لهم شيئاً.

وحتى عندما استقر الرسول ﷺ بالمدينة لم يملك لهؤلاء غير الدعاء، حيث كان يقول: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكة، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» [متفق عليه؛ وأحمد في المسند].

وقد أوضح ابن حجر [في الفتح] معنى كلمتي (الضعفاء) و (الشرفاء) اللتين وردتا في حديث هرقل مع أبي سفيان. [يأتي ذكره]

فمعنى الأولى عنده أن أتباع الرسل في الغالب أهل الاستكانة لا أهل الاستكبار الذين أصروا على الشقاق بغياً وحسداً، كأبي جهل وأتباعه. وفي معنى الثانية أن الشرف يقصد به ما يرادف التكبر. وهذا هو التفسير الذي ينبغي أن نفهم في ضوئه ما يرد من عبارات تتعلق بالشرفاء أو المستضعفين.

هذا ويلحظ أن من مجموع السبعة والستين الذين سبقوا إلى الإسلام ثلاثة عشر فقط ممن هم من الفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء والأخلاق من مختلف الأعاجم. فهم إذن الخمس من المجموع. وما كان كذلك لا يقال عنه (أكثرهم) ولا (معظمهم) ولا (عامتهم) [الشامي: من معين السيرة].

## ب- العبر والعظات في هذا المقطع:

١- إن في إلهام الله تعالى لرسول الله ﷺ بأن يبدأ الدعوة سرّاً، تعليماً للدعاة في كل زمان ومكان، وإرشاداً لهم إلى مشروعية الأخذ بالحیطة والحذر والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها. على أن لا يتغلب ذلك كله على الاعتماد والاتكال على الله تعالى وحده، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى

التأثير والفعالية في تصوره وتفكيره. فهذا يחדش أصل الإيمان بالله تعالى، فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام.

ومن هنا تدرك، أن أسلوب دعوته ﷺ في هذه الفترة كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إمامًا، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيًا [البوطي: فقه السيرة].

٢- أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم إذا ما أجمعوا على حربهم، فينبغي أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس، لأن المصلحة المقابلة، وهي مصلحة حفظ الدين، موهومة أو منفية الوقوع، وهذا ما يقرره العز بن عبد السلام [في قواعد الأحكام]. ويقول الدكتور البوطي في تعليقه على هذا القول إنه من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد، فإنها في الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضي - في مثل هذه الحال - أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى. وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضرارًا بالدين ذاته، وفسحًا للمجال أمام الكافرين ليقترحموا ما كان مسدودًا أمامهم من السبل.

وهو بهذا يعني أن عدم القتال تقديم لمصلحة الدين المتينة على مصلحة الدين المرجوحة.

## ● المبحث الحادي والعشرون: تطور الدعوة

### أ- المرحلة الثانية: الجهر بالدعوة:

روى أحمد - في المسند، بسند حسن - عن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٣١٤) [الشعراء: ٢١٤] قال: جمع النبي ﷺ أهل بيته، فاجتمع ثلاثون، فأكلوا وشربوا، فقال لهم: «من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة

ويكون خليفتي في أهلي؟»، فقال رجل: يا رسول الله، أنت كنت بحرًا، من يقوم بهذا؟... فعرض ذلك على أهل بيته، فقال علي: أنا.

وفي رواية ابن إسحاق [في السيرة، بسند يتقوى بغيره]: أن الرسول ﷺ قال لهم في ذلك اللقاء: «يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شابًا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتم به، إني قد جئتم بأمر الدنيا والآخرة».

ثم خطا الرسول ﷺ خطوة أخرى لتنفيذ أمر الله تعالى. فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس، قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكتتم مَصَدَّقِيَّ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم». قال أبو لهب: تبًا لك، ما جمعنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

وروى الشيخان عن أبي هريرة، قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا. فاجتمعوا فعمّ وخص، فقال: «يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هشام!... يا بني عبد المطلب!... يا فاطمة!... فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رَجْمًا سَابِلُهَا بِيَلَاهَا». [أي: سأصلها، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة الماء]. [الماء].

كانت هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ. فقد فاصل الرسول ﷺ قومه على دعوته، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه

وبينهم، وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله ﷻ [البوطي].

### ب- دروس وعبر من هذا المقطع:

١- إن الموقف السلبي لعشيرة الرسول ﷺ بصفة خاصة والعرب القرشيين بصفة عامة من الدعوة في هذه الفترة، فيه الرد القاطع على من يحاولون تصوير هذا الدين بأنه ثمرة من ثمار القومية، ويدعون أن محمدًا ﷺ إنما كان يمثل بدعوته التي دعا إليها آمال العرب ومطامحهم في ذلك الحين.

٢- إن في تباطؤ الناس عن الدخول في الإسلام، لدليلاً على مدى قوة وتغلغل العادات والتقاليد في المجتمعات التي تعيش ردحاً من الزمان في الجاهلية وفساد الفطرة. وهو وضع يواجهه الدعاة في كثير من المجتمعات قديماً وحديثاً، حتى المجتمعات الإسلامية، عندما يخبو فيها صوت الدعوة المهتدية بسنة الرسول ﷺ تجد أثراً كبيراً للعادات والتقاليد في تسيير حركة المجتمع في المجالات المختلفة، وتجد استنكاراً ممن وقعوا في أسر هذه العادات والتقاليد، لصوت العقل المهتدي بسنة الرسول ﷺ والسلف الصالح، في فهم الإسلام.

٣- إن في خصوصية الأمر بإنذار العشيرة، إشارة إلى درجات المسؤولية التي تتعلق بكل مسلم عمومًا والدعاة منهم خصوصًا. فقد كان الرسول ﷺ يتحمل المسؤولية تجاه نفسه، بوصف كونه مكلفًا. ويتحملها تجاه أسرته وأهله، بوصف كونه رب أسرة وذا أسرة قربي، ثم كان يتحمل المسؤولية تجاه الناس كلهم بوصف كونه نبيًا ورسولاً من الله ﷻ.

ويشترك مع النبي ﷺ في الأولى، كل مكلف، وفي الثانية كل صاحب أسرة، أو كل فرد له عشيرة، وفي الثالثة العلماء والحكام [البوطي].

## • المبحث الثاني والعشرون: المشركون والدعوة

### أ- أساليب المشركين في محاربة الدعوة الإسلامية:

لم تنزل أصدااء تلك الصيحة ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿٦١٤﴾ مدوية في جنبات أم القرى، حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ [الحجر: ٩٤] فقام الرسول ﷺ مشمراً عن ساعد الجد، صادعاً بالحق، داعياً إلى هجر الأوثان، مسفهاً عقول المؤمنين بها، مبيناً حقائق الإسلام، داحضاً الأباطيل العقدية التي تعشعش في عقول أهل الجاهلية.

عندما رأت قريش أن أثر هذه الدعوة لم يكن محدوداً كما كان الحال مع من دعا إلى نبذ الأصنام قبل محمد ﷺ، أمثال زيد بن نفييل وورقة وابن صيفي، قامت في وجه محمد ﷺ ومن تبعه، وأخذت تمارس شتى أساليب ووسائل الترغيب والترهيب، لصدهم عن هذا الطريق الذي هدد مصالحهم، التي يجنونها من وجود الحرم في أرضهم، وخط من تكبرهم على غيرهم، ووقف أمام شهواتهم في السيطرة واقتراف السيئات والموبقات. وقد كان أكثر هؤلاء من أصحاب النفوذ والمصالح.

### ومن أبرز تلك الأساليب:

#### الأسلوب الأول: محاولة التأثير على عمه أبي طالب:

وهذا أول أسلوب لجأ إليه المشركون حتى يكفّ أبو طالب الرسول ﷺ عن الدعوة أو تجريده من جواره - أي حمايته - فقد ذهبت مجموعة من أشرافهم إلى عمه أبي طالب وقالوا له: إن ابن أخيك قد سبّ آهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم ردّاً جميلاً فانصرفوا عنه [ابن إسحاق].

## الأسلوب الثاني: التهديد بمنازلة الرسول ﷺ وعمه أبي طالب:

ولما مضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يُظهر دين الله ويدعو إليه، غضبت منه قريش، وعادوه وحقدوا عليه وأكثروا من ذكره، وحض بعضهم بعضًا ومشوا إلى عمه مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًا وشرًا ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وأقسموا بأنهم لن يصبروا على أفعاله حتى يكفه عنهم أو ينازلوه وإياه في ذلك، ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه، ولذا أبلغ الرسول ﷺ بالذي قالوه، وطلب منه أن يبقى عليه وعلى نفسه ولا يحمل من الأمر ما لا يطيق [ابن إسحاق].

وفي رواية ضعيفة لابن إسحاق: أن الرسول ﷺ ظن أن عمه قد ضعف عن نصرته، ولذا قال له: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته»، ثم بكى رسول الله ﷺ وقام من عند عمه، فلما ولى ناداه عمه، فقال: «أقبل يا ابن أخي»، فلما أقبل قال له: «اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا». وفي رواية أخرى لابن إسحاق [بسنده حسن] من حديث عقيل بن أبي طالب: أن أبا طالب أرسل عقيلًا إلى النبي ﷺ، فلما حضر الرسول ﷺ قال له عمه: «إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أن تؤذيهم في ناديم ومسجدهم، فانتبه عن أذاهم، فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: «أترَوْنَ هذه الشمس؟» قالوا: نعم، قال: «فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة»، فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي، فارجعوا». وهذه الرواية هي الصحيحة.

ومن أبرز الحكم والعبر في هذين الأسلوبين، أن هذا الموقف القوي للرسول ﷺ من قومه ينسجم مع ما أمر به من البلاغ. أما موقف أبي طالب فعجيب حقًا، ولم يجد

ابن كثير [في البداية] تفسيراً له سوى قوله: (إن الله تعالى قد امتحن قلبه بحب محمد ﷺ حباً طبيعياً لا شرعياً. وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه. ولتجرؤوا عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

وقد قسم خلقه أنواعاً وأجناساً، فهذان العمان كافرين: أبو طالب وأبو لهب. ولكن هذا يكون يوم القيامة في ضحضاح من نار، [إشارة إلى الحديث المتفق عليه عن العباس رضي الله عنه أنه قال: «يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: نعم، هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار». والتخفيف عنه بسببه، والضحضاح: ما رق من الماء على جه الأرض، ما يبلغ الكعبين] وذلك أي أبو لهب في الدرك الأسفل من النار، وأنزل الله عز وجل فيه سورة في كتابه تتلى على المنابر وتقرأ في المواظ والخطب تتضمن أنه سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب).

وظل أبو طالب طوال حياته ينهى الناس عن إيذاء الرسول ﷺ ويحميه وينأى عن الدخول في الإسلام. وقد روي أن الآية: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعُونَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، قد نزلت فيه [تفسير الطبري وابن الجوزي].

### الأسلوب الثالث: الاتهامات الباطلة لصد الناس عنه:

من تلك الاتهامات:

أ- اتهموه بالجنون. وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ

إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]. وقد أجابهم الله في آية القلم: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [٢]

[القلم: ٢]. وحكى عنهم في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

ب- اتهموه بالسحر. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ﴾ [ص: ٤]، ﴿وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ اِنْ تَتَّبِعُونَ اِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].  
 وقد تحيّر الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن. فعندما أوشك دخول موسم الحج جمع فريقه من عتاة المعاندين، فقال لهم: «يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا...». وعلى الرغم من استبعادهم أنه كاهن أو شاعر أو ساحر إلا أنهم اتفقوا على أن يقولوا للناس إنه ساحر، لأنه يفرق بين الأقارب، فأنزل الله عز وجل في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١]، ثم أخذوا يتلقون الناس يحدرونهم من أمر محمد ﷺ. و شاء الله تعالى أن تصدر العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها [الطبري: التفسير].

وكان مثل هذه المواقف من أسباب إسلام الناس في المواسم. وما روي في قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي الدليل على ذلك [ابن إسحاق].

و خلاصة قصته: أنه عندما قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، مشى إليه رجال من كفار قريش، وكان الطفيل رجلًا شريفًا شاعرًا لبيبًا، فقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل [اشتد أمره، ومنه الداء المعضل أو العضال والمعضلة] بنا، وفرق جماعتنا وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمع منه شيئًا. فما زالوا به حتى وضع كرسفًا [قطنًا] في أذنيه، ولكن أراد الله عز وجل أن يسمع من النبي ﷺ عندما كان يصلي عند الكعبة، فيسلم، ويسلم قومه. إلخ.

ج- واتهموه بالكذب، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ﴾

[ص: ٤]، ﴿وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا اِنْ هٰذَا اِلَّا اِفْكٌ اَفْتَرْتَهُ وَاَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ اٰخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤].

د- واتهموه بالإتيان بالأساطير. قال تعالى: ﴿وَقَالُوْا اَسْطِيْرُ الْاَوَّلِيْنَ اَكْتَتَبَهَا فَهِيَ

تُمَلِّىْ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَّاَصِيْلًا﴾ [الفرقان: ٥].

ه- وقالوا إن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو من عند البشر ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمُ اَنَّهُمْ

يَقُوْلُوْنَ اِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِّسَاتٍ اَلَّذِيْ يُلْحِدُوْنَ اِلَيْهِ اَعْجَمِيٌّ وِهٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِيْنٌ﴾

[النحل: ١٠٣].

و- واتهموا المؤمنين بالضلالة... ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوْا اِنَّ هٰٓؤُلَآءِ لَضٰلُوْنَ﴾ [المطففين: ٣٢].

[من هؤلاء المؤمنين: عمار، وبلال، وخبّاب، كما ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٦٠)].

### الأسلوب الرابع: السخرية والاستهزاء والضحك والغمز واللمز والتعالي على المؤمنين:

يقول الله تعالى عن سخريتهم من الذين آمنوا: ﴿وَكٰذٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُوْلُوْا

اِهْتُوْلَآءٌ مِّنْ اَللّٰهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيِّنٰتٍ اَلَيْسَ اَللّٰهُ بِاَعْلَمَ بِالشّٰكِرِيْنَ﴾ [الأعمام: ٥٣]. وروى البخاري:

أن امرأة قالت للرسول ﷺ ساخرة مستهزئة: «إني لأرجو أن يكون شيطانك قد

تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً!»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحٰى ١﴾ وَأَلَيْلٍ إِذَا سَجَى ٢﴾

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ [الضحى: ١-٣].

وروى البخاري أن أبا جهل قال مستهزئاً: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك

فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»، فنزلت: ﴿وَإِذْ قَالُوا اَللّٰهُمَّ اِن

كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِّنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ اَوْ اِئْتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ ٣٢﴾ وَمَا

كَانَ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَاَنْتَ فِيْهِمْ وَمَا كَانَ اَللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُوْنَ ٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ اَلَّا يُعَذِّبَهُمُ

اَللّٰهُ وَهُمْ يَصُدُّوْنَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٢-٣٤].

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] حديث الإراشي الذي اشترى منه أبو جهل الإبل، ومطله بأثمانها، ودلالة قريش إياه على رسول الله ﷺ لينصفه من أبي جهل، استهزاء لما يعلمون من العداوة بينهما. وعندما جاء الإراشي إلى الرسول ﷺ شاكيًا، مشى معه إلى أبي جهل، وأخذ له بحقه. وعندما سألت قريش عن صنيعه هذا، قال: (ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي، وسمعت صوته، ملئت رعبًا، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسه لفحلًا من الإبل، ما رأيت مثل هامته [رأسه] ولا قصرته [أصل عنقه] ولا أنيابه لفحلٍ قطُّ، والله لو أبيت لأكلني).

وقال الله تعالى عن ضحكهم وغمزهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ

﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ [المطففين: ٢٩-٣١].

وثبت من طرق صحيحة [في مسند أحمد ومصنف ابن أبي شيبة وسيرة ابن إسحاق] أن أشراف قريش اجتمعوا يومًا في الحجر يتذاكرون أمر الرسول ﷺ وما جاء به. وبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ ليطوف بالبيت، فلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول ثلاث مرات، فقال لهم: «يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح...»، وقد فزعوا من هذا الموقف.

ومن منطلق الاستعلاء والسخرية، قال المشركون للنبي ﷺ: «لا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء - يعنون صهيبيًا وبلايًا وخبابيًا - فاطردهم عنك»، فهمّ النبي ﷺ بذلك طمعًا في إسلامهم وإسلام قومهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۗ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ [الأنعام: ٥٢]، [الطبري: التفسير، أثر ١٣٢٥٨، صحيح].

ومر الرسول ﷺ يوماً بجماعة من زعماء قريش فهمزوه واستهزؤوا به، فغاضه ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، [ابن إسحاق].

ومن كبار المستهزئين والساخرين: الأسود بن عبد المطلب بن أسد، [ابن إسحاق]، الأسود بن عبد يغوث بن وهب الزهري، الوليد بن الغيرة المخزومي، العاص بن وائل السهمي، [ابن هشام]، الحارث بن الطلائفة الخزاعي [ابن إسحاق]. وروى أبو نعيم، من حديث ابن إسحاق، أن الله تعالى أنزل فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]. وروى أن جبريل ﷺ رمى في وجه الأسود بن عبد المطلب ورقة خضراء فعمي.

ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه [أي أصابه مرض الاستسقاء] فمات من ذلك. ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى جرح بأسفل كعب رجله، وكان أصابه قبل ذلك بسنين، فانتقض به فقتله. ومر به العاص بن وائل، فأشار إلى أخص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به حماره على نبات خفيف فدخلت في أخص رجله منها شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلائفة فأشار إلى رأسه فتحرك القيح فيه فقتله [ابن إسحاق، مرسل صحيح].

والوليد بن المغيرة هو القائل: أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؛ ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيمي القريتين! [يعني مكة والطائف]، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وللمفسرين أقوال أخرى في الرجلين المعنيين في الآية. [انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢١٢-٢١٣)].

ومن كبار المستهزئين الساخرين - أيضاً - : أبو جهل وأمّية بن خلف والنضر ابن الحارث والأخنس بن شريق وأبي بن خلف [ابن هشام، وغيره].

### الأسلوب الخامس: التشويش:

كان المشركون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر عندما يقرأ القرآن، حتى لا يسمع فيفهم فيترك أثراً في عقل نقي وقلب طيب. وفي ذلك قال المولى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

### الأسلوب السادس: طلبه أن تكون للرسول صلى الله عليه وسلم معجزات أو مزايا ليست عند البشر العاديين:

من ذلك قولهم: ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ، نَذِيرًا ﴾ (٧) أَوْ يُلقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفرقان: ٧-٨].  
وقولهم: ﴿ وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يونس: ١٥].

ورد عليهم الله تعالى في الآية نفسها: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَدَّبِلُهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنَّهُ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: ١٥].

وقولهم: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ (١٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (١١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِلِلِّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فَبِيلاً ﴾ (١٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى نُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، ولذا قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم كما جاء في الآية نفسها: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (١٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣-٩٤].

وسألوه أن يسير لهم جبال مكة، ويقطع لهم الأرض ليزرعوها، ويبعث لهم من مضى من الآباء الموتى، أمثال قصي، ليسألوه عن صدق محمد. ورد الله تعالى عليهم في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، أي لا أصنع من ذلك إلا ما شاء الله [الطبري: التفسير].

ولقد كان طلبهم على وجه العناد، لا على وجه طلب الهدى والرشاد. فلهذا لم يجابوا إلى كثير مما طلبوا، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقِنَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وروى أحمد، [في المسند، بسند جيد]، من حديث ابن عباس قال: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال فيزدرعوا - أي يزرعوا مكانها - فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم الأمم، قال: «لا، بل أستأني بهم»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَايَاتِنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وروي أنهم طلبوا منه أن يجعل صخرة معينة ذهباً لينحتوا منها وتغنيهم عن رحلتي الشتاء والصيف. وروى مسلم أنهم طلبوا أن يريهم آية، فأراهم القمر قد انشق.

### الأسلوب السابع: المساومات:

لقد حاولت قريش من خلال هذا الأسلوب أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق، وذلك بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه. قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].



### الأسلوب الثامن: سب القرآن ومنزله ومن جاء به:

روى البخاري ومسلم وغيرهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أن ابن عباس قال: «نزلت ورسول الله ﷺ مخنف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون ذلك سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾، أي بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].»

وروى ابن إسحاق [في السير]، أن رسول الله ﷺ كان إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي، يسترق السمع دونهم فرقا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم ولم يستمع، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته، فظن الذي يستمع أنهم لم يسمعوا شيئا من قراءته، وسمع من دونهم، التفت إليه يستمع، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ فيتفرقوا عنك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، فلا يسمع من أراد أن يستمعها ممن يسترق ذلك دونهم لعله يرعوي إذا استمع إلى بعض ما يسمع فيقتنع به ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعندما كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، أخذ المشركون يسبون الله عز وجل عدواً بغير علم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] [الطبري: التفسير].

وهذا النهي عن سب آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسبب إله المؤمنين [ابن كثير: التفسير].

ومن هذا القبيل - وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها - ما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه». وقوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «لولا حداثة عهد قومك بالكفر، لنقضت الكعبة، ولجعلتها على أساس إبراهيم...». وكان هذا الحديث سنداً لابن الزبير في بناء الكعبة على قواعد إبراهيم [متفق عليه].

#### الأسلوب التاسع: الاتصال باليهود للإتيان منهم بأسئلة تعجيزية للرسول ﷺ:

أوفدت قريش نفرًا منهم إلى المدينة، على رأسهم: النضر بن الحارث وعقبة ابن أبي مَعْيط، ليأتوا من اليهود بأسئلة تعجيزية فيطرحونها على الرسول ﷺ. فقالت لهم يهود: سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين والروح. ولكن الله تعالى أبطل كيدهم عندما أنزل قرآنًا في شأن الإجابة عن أسئلتهم. [أحمد: المسند، بسند صحيح].

#### الأسلوب العاشر: الترغيب:

أرادت قريش أن تجرب أسلوب الترغيب، فأرسلت عتبة بن ربيعة، الذي قال للرسول ﷺ: «يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا فلا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك ربياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ».

وروى ابن إسحاق [في السيرة بسند مرسل حسن] أن النبي ﷺ لما فرغ من قوله تلا صدر سورة (فصلت) إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

وعندها وضع عتبة يده على جنبه وقام كأن الصواعق ستلاحقه، وعاد إلى قريش مخبراً إياهم بأن ما سمع ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة، واقترح على قريش أن تدع محمداً وشأنه. وفي رواية البيهقي [في الدلائل]، وابن أبي شيبه [في مصنفه] وابن حميد [في المنتخب، حسن] من حديث جابر، زادوا: «وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت».

وفي رواية [عند الحاكم والبيهقي في الدلائل، بأسانيد تعتضد]، إن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: «يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا»، قال: «لم؟»، قال: «ليعطوك، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله..»، ثم قال عن القرآن الذي سمعه من محمد ﷺ: «ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدقٌ أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليعظم ما تحته...».

### الأسلوب الحادي عشر: الترهيب:

كان أبو جهل، إذا سمع عن رجل قد أسلم وله شرف ومنعة، أنبه وأخزاه، وقال له: «تركت دين أبيك وهو خير منك! لَنُسِفَهَنَّ حُلْمَكَ، وَلَنُضْعِفَنَّ رَأْيَكَ، وَلَنُضْعِنَنَّ شَرَفَكَ»، وإن كان تاجراً قال له: «لَنُكْسِدَنَّ تِجَارَتَكَ، وَلَنُهْلِكَنَّ مَالَكَ»، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به [ابن إسحاق في السيرة].

### الأسلوب الثاني عشر: الاعتداء الجسدي:

#### أ- الاعتداء الجسدي على الرسول ﷺ:

عندما لم تثمر كل الأساليب السابقة وغيرها في صد الرسول ﷺ وأصحابه عن دينهم، لجأت قريش إلى أسلوب الاعتداء الجسدي والتصفية الجسدية.

لقد استفحل إيذاؤهم للرسول ﷺ في الفترة العلنية لغضبهم منه حين أضحى يظهر شعائر دينه مثل الصلاة عند الكعبة. فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: «هل يُعَفِّرُ محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى! لئن رأيتَه يفعل ذلك لأطأن على رقبتَه، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب. قال فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي - زعم ليظاً على رقبتَه - قال: فما فجأهم منه إلا وهو يَنكُصُ على عَقْبِيهِ ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لَحَنَدًا من نار وهو لَأ وأجنحة». فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَلًا ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿٩﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فليدعُ نادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدَعُ الزَّيْنَابَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نُطِيعُه وَأَسْجُدُ وَأَقْرَبُ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ٦-١٩]. [ورواه البخاري مختصراً].

وروى البخاري بسنده إلى عروة بن الزبير، قال: «سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: رأيت عقبة ابن أبي معيط، جاء إلى النبي ﷺ، وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه ﷺ، فقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟».

وروى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود، قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحِرَتْ جَزورٌ بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جَزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فَاسْتَضْحَكُوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر. لو كان لي منعة طرحتَه عن ظهر

رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجدا ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جُوَيْرِيَّةُ، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم. فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم.. فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر».

قال ابن حجر [في الفتح]: (وقد أخرج أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح عن أنس، قال: «لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم، أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ فتركوه وأقبلوا على أبي بكر...») [مسند أبي يعلى، برقم ٣٦٩١].

وتسلط عليه عتيبة بن أبي لهب بالأذى، وشق قميصه، وتفل في وجهه ﷺ إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبي ﷺ، وقال: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك». واستجيب دعاؤه، فذبحه السبع وهو بالزرقاء بالشام. وحاولت أم جميل أروى أو العوراء بنت حرب، أخت أبي سفيان - زوجة أبي لهب - أن تعتدي عليه بحجر، فحماه الله عز وجل منها - كما روى البيهقي [في الدلائل]. وكانت تحمل الحطب لتضعه في طريقه - كما حكاه القرآن الكريم [المسد: ٤] [وإسناد البيهقي حسن لغيره].

وروى أحمد [في المسند، بسند صحيح]، أن الملاء من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف: لو قد رأينا محمداً لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله... وأخبرته ابنته فاطمة بالذي قالوا، فجاءهم وحصبهم بقبضة من تراب، من أصابته منهم قتل يوم بدر كافراً.

وروى الإمام أحمد [في المسند، بسند صحيح] من حديث أنس، أن جبريل ﷺ جاء ذات يوم إلى النبي ﷺ وهو جالس حزيناً قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له مَالِكُ؟ قال: «فعل بي هؤلاء وفعلوا، فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم. فنظر

إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع بتلك الشجرة، فدعاها، فجاءت حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع، فأمرها فرجعت إلى مكانها. فقال رسول الله ﷺ: «حسبي». يرى ابن كثير [في البداية]، أن غالب ما وقع للرسول ﷺ من اعتداء جسدي وما يشبه ذلك، كان بعد وفاة عمه أبي طالب.

### ب- الاعتداء الجسدي على الصحابة من قريش بمكة:

ونال أبو بكر رضي الله عنه نصيبه من الأذى، حتى فكر في الهجرة إلى الحبشة - كما فعل آخرون غيره - فرارًا بدينه [البخاري].

وذاث يوم قام أبو بكر خطيبًا في المسجد الحرام، فضربه المشركون ضربًا شديدًا، ومن ضربه عتبة بن ربيعة، حيث جعل يضربه على وجهه بنعلين مخصوصتين حتى ما يعرف وجهه من أنفه. وجاء بنو تيم - قومه - يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملوه في ثوب إلى منزله، ولا يشكون في موته، وأقسموا لئن مات أبو بكر ليقتلن عتبة ابن ربيعة [ابن كثير: البداية].

وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، على الرغم من تحذير المسلمين له من عدوان المشركين وخشيتهم عليه. فعندما فعل ذلك، ضربه على وجهه حتى أثروا فيه. وعندما قال له الصحابة: «هذا الذي خشينا عليك، قال: ما كان أعداء الله أهون منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا. قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون» [ابن إسحاق كما في السيرة].

وكان عمُّ عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق النخيل، ثم يدخنه من تحته. وروي أنه عندما أسلم أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطًا، وأقسم ألا يحله إلا إذا ترك الإسلام، فأقسم عثمان رضي الله عنه على عدم تركه الإسلام، فلما رأى عمه صلابته في دينه تركه [ابن سعد].

ولما علمت أم مصعب بن عمير رضي الله عنه بإسلامه أجاجته وأخرجته من بيته. وكان من أنعم الناس عيشًا، فتخشف جلده تخشف الحية، حتى حمله أصحابه على قسيهم؛ لشدة ما به من الجهد [ابن إسحاق: السيرة].

واعتدوا على عمر بن الخطاب عندما أسلم، وحاولوا قتله لولا أن أنقذه الله عز وجل بالعاص بن وائل [ابن إسحاق: السير والمغازي].

وممن أوذى عثمان بن مظعون. فقد روي أنه عندما رجع من الهجرة الأولى إلى الحبشة، دخل في جوار [حمية] الوليد بن المغيرة، فلما رأى المشركين يؤذون المسلمين وهو آمن، رد جوار الوليد. وعندما قدم ليبد بن ربيعة إلى مكة، وكان في مجلس لقريش ينشدهم شعره، قال ليبد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، قال عثمان بن مظعون: «صدقت، وعندما قال: وكل نعيم لا محالة زائل، قال له عثمان: «كذبت. نعيم الجنة لا يزول»، قال ليبد: «يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟»، فقال رجل من القوم: «إن هذا أيضًا في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله»، فرد عليه عثمان حتى تفاقم أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه فحَصَّرَهَا، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: «أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابت لغنيّة، لقد كنت في ذمة منيعة»، قال عثمان: «بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس»، فقال له الوليد: «هلم يا ابن أخي، إن شئت فعد إلى جوارك»، فقال: «لا» [ابن إسحاق: السيرة، والبيهقي في الدلائل، والطبراني في الكبير].

وكان عم الزبير بن العوام يعلقه في حصير، ويدخن عليه النار، ويقول: «ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبدًا» [الحاكم، وأبو نعيم في الحلية].

وكان أبو جهل قد حبس أخاه سلمة بن هشام بن المغيرة رضي الله عنه عندما عاد من الحبشة، وأجاعه، ولكن تمكن من الانفلات واللحاق بالرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد غزوة الخندق [ابن سعد]. وكان ممن دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم ربه في القنوت أن ينجيهم الله من أعدائهم [البخاري].

### ج- الاعتداء الجسدي على المسلمين العرب من خارج مكة:

ولم يقتصر التعذيب الجسدي على المسلمين بمكة، بل امتد إلى بعض الأفراد الذين أسلموا من القبائل البعيدة عن مكة. فقد روى ابن سعد أن أم شريك غزية بنت جابر ابن حكيم عندما أسلمت هي وزوجها، وهاجر زوجها مع أبي هريرة وجماعة من قومها، جاءها أهل زوجها أبي العكر فسألوها إن كانت على دينه، فأقرت بإسلامها، فأقسموا على تعذيبها. فعندما ارتحلوا من مكان إلى آخر، حملوها على شركابهم وأغلظها، ثم أطعموها خبزاً وعسلاً ومنعوا عنها الماء، وتركوها في الشمس حتى ذهب عقلها وسمعها وبصرها، وكرروا ذلك لمدة ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث، طلبوا منها ترك دينها، فلم تفعل غير الإشارة بأصبعها إلى السماء بالتوحيد ولا تعي ما يقولون من شدة الإعياء والإغماء، وأكرمها الله عز وجل بدلو من ماء شربت منه، فكان ذلك سبباً في إسلام أهل زوجها وهجرتهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وعندما سمع أبو ذر الغفاري رضي الله عنه بخبر النبي صلى الله عليه وسلم جاء ودخل مكة، وأخذ يسأل عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فضربه أهل مكة حتى أغشى عليه، وكاد أن يموت، فخلصه العباس رضي الله عنه منهم [متفق عليه].

وروى قصة إسلامه مطولة مسلم، وأحمد [في المسند]، وأبو نعيم [في الدلائل]، والحاكم. وفيها أن أبا ذر أول من حيّا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية أهل الإسلام، السلام

عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال الرسول ﷺ في رده عليه: «وعليك السلام ورحمة الله...». [ابن سعد من طريق الواقدي] ولفظ أحمد: «عليك ورحمة الله»، ولفظ مسلم: «وعليك ورحمة الله» في رواية، وفي أخرى «وعليك السلام»؛ ولفظ أبي نعيم: «وعليك ورحمة الله».

#### د- الاعتداء الجسدي على الموالي:

لقد نَفَسَ الكفار كل أحقادهم على الإسلام ومعتنقيه في أشخاص الموالي؛ لأنه لم تكن لهم منعة. فكان العذاب أقسى وأفظع.

وقد عذر الله ﷻ المعذبين فيما يقولون حينما يبلغ الجهد منهم مبلغه. قال سعيد بن جبير لابن عباس: «أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟»، قال: «نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجوعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولون له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده» [ابن إسحاق: السيرة]. قال ابن كثير في البداية: (وفي مثل هذا أنزل الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتهم على ما أرادوا، إلا بلالًا فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى، وهان على قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد» [أحمد: المسند، بسند صحيح].



ومن أبرز من نالهم الاعتداء الجسدي من الموالى بمكة:

أ- آل ياسر رضي الله عنهم:

كانت هذه الأسرة ممن يضرب بها المثل فيما لاقاه المستضعفون من الابتلاءات في تاريخ الإسلام. فقد كان بنو مخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهرية فيعذبونهم برمضاء مكة وغطوا عمار في الماء [ابن إسحاق: في السيرة والسير والمغازي].

ومرَّ بهم الرسول صلى الله عليه وسلم ذات مرة وهم يعذبون، فقال لهم: «أبشروا آل عمار وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة» [الحاكم، بسند صحيح].

وكان أول من استشهد في سبيل الله عز وجل من هذه الأسرة خاصة، وفي الإسلام عامة: أم عمار - سمية بنت خباط - فقد طعنها أبو جهل بحربة في قُبُلها فماتت من جراء هذا الاعتداء الأثم [البيهقي: الدلائل، من مرسل مجاهد].

ومات ياسر في العذاب، ورمي ابنه عبد الله فسقط ميتا [ابن حجر: الفتح]. وتفننوا في إيذاء عمار، حتى أجبروه على أن يتلفظ بكلمة الكفر بلسانه. وذكر جمهور المفسرين أن من أسباب نزول الآية الكريمة: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] هو موقف عمار بن ياسر هذا [ابن الجوزي والطبري].

قال ابن حجر [في الفتح (٩ / ٢٨١)]: (وكان عمار عربياً عنسياً، ما وقع عليه سبي، وإنما سكن أبوه ياسر مكة، وحالف بني مخزوم، فزوّجوه سمية، وهي من مواليهم، فولدت له عماراً، فيحتمل أن يكون المشركون عاملوا عماراً معاملة السبي لكون أمه من مواليهم). وقال ابن إسحاق [في السيرة، ص ١٩٢]: (إن ياسراً كان عبداً لبني بكر من بني الأشجع، فاشتروه منهم، فزوّجوه سمية أم عمار، فولدت عماراً، وكانت سمية أمة لهم، فأعتقوا سمية وعماراً).

ب- بلال رضي الله عنه :

كان بلال مولى لبعض بني جُمَح. وهو بلال بن رَبَاح، وأمه حَمَامَة. ذكر أنه كان حبشياً، وهو المشهور، وقيل: كان نوبياً [ابن حجر: الفتح].

كان طاهر القلب صادق الإسلام. وكان مولاه أمية بن خلف يخرجته إذا حميت الظهرية، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: «لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى»، فيقول وهو في ذلك البلاء: «أحد أحد» [ابن إسحاق: السيرة يعتضد].

وروى البلاذري [في أنساب الأشراف]، عن عمرو بن العاص قال: «مررت ببلال وهو يعذب في الرمضاء، ولو أن بضعة لحم وضعت عليه لنضجت، وهو يقول: أنا كافر باللات والعزى، وأميه مغتاض عليه، فيزيده عذاباً، فيقبل عليه فيدغت في حلقه، فيغشى عليه ثم يفيق».

وروى البلاذري - كذلك - عن مجاهد، قال: «جعلوا في عنق بلال حبلاً، وأمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي مكة - يعني جبلية - ففعلوا ذلك وهو يقول: أحد أحد». وقال البلاذري - أيضاً - : (وروي أن بلالاً قال: «أعطشوني يوماً وليلة، ثم أخرجوني فعذبوني في الرمضاء في يوم حار»).

وعندما رآه أبو بكر رضي الله عنه في هذه الحالة، ساوم سادته على شرائه، فاشتراه وأعتقه. فقد روى ابن أبي شيبة [كما قال ابن حجر في الفتح] بإسناد صحيح، والبلاذري بإسناد جيد، وابن عبد البر [في الاستيعاب، بسند قوي]: أن «أبا بكر اشترى بلالاً بخمس أواق وهو مدفون بالحجارة». وروى البخاري أن بلالاً قال لأبي بكر: «إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت اشتريتني لله فدعني وعمل الله».

## ج- خباب بن الأرت رضي الله عنه :

[سمي الأرت للكنة في لسانه العربي - البلاذري].

هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة... بن تميم التميمي، ويقال الخزاعي [ابن هشام]... سُبي في الجاهلية، فبيع بمكة. وكان مولى لأم أنمار الخزاعية، وقيل غير ذلك، ثم حالف بني زهرة. كان يعمل قينًا - حدادًا - في صناعة الأسنة، وبخاصة السيوف. وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام [متفق عليه].

وعندما أظهر إسلامه لاقى صنوفًا شتى من العذاب في المال والنفس، وضمن سائر المستضعفين [حلية الأولياء، بسند صحيح]. ومما روي في ذلك أنهم كانوا يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبًا، ويلوون عنقه بعنف، وأضجعوه مرات عديدة على صخور ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجرًا حتى لا يستطيع أن يقوم [ابن الجوزي: التلخيص]. وأوقدوا له نارًا ووضعوه عليها، فما أطفأها إلا ودك ظهره، كما ذكر خباب نفسه، وقد كشف عن ظهره وأرى أثر ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه [الحلية، بسند حسن بشواهدة]، وذكر أيضًا أنهم كانوا يضجعونه على الرّصيف [الحجارة الممحة]، ومع ذلك لم ينالوا منه ما أرادوا [الحلية، بسند صحيح].

وله قصة مشهورة مع العاص بن وائل، رواها البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث خباب نفسه قال: «كنت قينًا بمكة فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفًا، فجئت أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فقلت: لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى يملكك الله ثم يحميك، قال: إذا أماتني الله ثم بعثني ولي مال وولد فسأقضيك، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ۗ ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۗ ﴿٧٨﴾﴾ [مريم: ٧٧-٧٨].

وعندما اشتد البلاء بخاب ﷺ وإخوانه المسلمين المستضعفين، شكوا إلى الرسول ﷺ حالهم. فقد روى البخاري عن خباب قوله: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد برداً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

#### د- عامة الموالى المستضعفين:

منهم حمامة، والدة بلال، وعامر بن فهيرة، وأم عبيس، وزنيرة، والنهدية، وابنتها، وجارية بني عدي، التي كان يعذبها عمر بن الخطاب قبل أن يسلم [ابن كثير: الفصول]، وجارية بني مؤمل وقد أعتقهم أبو بكر جميعاً [ابن إسحاق: السيرة، والسير].

وعندما رأى أبو قحافة ابنه أبا بكر يعتق هؤلاء المستضعفين، قال له: «يا بني، إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلداً يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر: «يا أبت، إني إنما أريد ما أريد الله ﷻ». فأنزلت فيه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ٥-٢١] [الحاكم، وصححه من حديث ابن إسحاق وسكت عنه الذهبي].

وقد أصيب بصر زنيرة حين أعتقها أبو بكر، فقالت قريش: «ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى»، فقالت: «كذبوا وبيت الله، ما تضران اللات والعزى وما تنفعان». فرد الله بصرها [ابن إسحاق: السيرة، بإسناد حسن مرسل].

وكان أفلح - أبو فكيهة - مولى لبني عبد الدار - كانوا يشدونه بالحبل من رجله ثم يجرونه على الأرض، ليفتنوه عن دينه [الإصابة، بدون إسناد].

### العبر والعظات:

١ - ربما يتساءل المرء: فيم هذا العذاب الذي لقيه الرسول ﷺ وأصحابه وهم على الحق؟ ولماذا لم يعصمهم الله تعالى منه وهم جنوده وفيهم رسوله؟ والجواب: أن أول صفة للإنسان في الدنيا، أنه مكلف، وأمر بالدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله تعالى. وعبودية الإنسان لله ﷻ ضرورة من ضرورات ألوهيته ﷻ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فقد استلزمت العبودية - إذاً - التكليف، واستلزم التكليف تحميل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء، والصمود في وجه الفتن والابتلاءات.

والفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب، وفي ذلك يقول المولى ﷻ: ﴿الْع ١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت: ١-٣]، ويقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وما دام الأمر كذلك فلا ينبغي للمسلم أن يتوهم اليأس إذا ما عانى شيئاً من المشقة والمحنة. بل العكس هو المنسجم مع طبيعة هذا الدين، أي إن على المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيداً من الضر والنكبات سعياً إلى تحقيق أمر ربهم ﷻ، ويتجلى برهان ذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؕ الْآءِ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] [البوطي: فقه السيرة].

٢- المقرر عند علماء المسلمين أن الأخذ بالعزيمة في ميدان الإكراه أولى من الرخصة، وأن أخذ الأئمة والقادة بالعزيمة هو الأولى والأجمل. ويعتبر الفقهاء الإكراه بمدى قدرة المكره على إيقاع ما هدد به [الموصلي: الاختيار لتعليل المختار].

وإن أخذ عامة المسلمين بالرخصة ليس دليلاً على فساد في العقيدة، بدليل قول الرسول ﷺ لعمار بن ياسر: «إن عادوا فعد»، أي إذا عادوا وطلبوا منك ذكر آلهتهم بخير، فاذكرها، ما دام قلبك مطمئناً بالإيمان [زهير سالم: عشرات].

يقول ابن كثير [في التفسير]، في تعليقه على موقف عمار بن ياسر من التعذيب: (ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالي المكره على الكفر، إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يستقتل كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل،... وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري [رسول رسول الله ﷺ إلى مسيلمة]، لما قال له مسيلمة الكذاب: «أتشهد أن محمداً رسول؟» فيقول: «نعم» فيقول: «أتشهد أني رسول الله؟» فيقول: «لا أسمع». فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك... والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر، في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي (...). فقد عرض على الموت مرتين ولم يتزعزع.

وفي تعليقه على الموقف ذاته قال ابن الجوزي [في تفسيره]: (الإكراه على كلمة الكفر يبيح النطق بها. وفي الإكراه المبيح لذلك عن أحمد روايتان إحداهما: أنه يخاف على نفسه أو على بعض أعضائه التلف إن لم يفعل ما أمر به. والثانية أن التخويف لا يكون إكراهاً حتى ينال بعذاب. وإذا ثبت جواز «التقية»، فالأفضل ألا يفعل...).

ويرى بعض السلف أمثال معاذ بن جبل رضي الله عنه ومجاهد رضي الله عنه أن مثل هذه التقية كانت في بدء الإسلام، قبل استحكام الدين وقوة المسلمين، وأما اليوم فقد أعز الله الإسلام، فليس ينبغي لأهل الإسلام أن يتقوا من عدوهم [تفسير البغوي].

إن في مواقف المؤمنين - بمختلف قبائلهم - وثباتهم على دينهم ورضاهم بجوار ربهم، مثلاً عالياً في التوكل على الله تعالى، ولن ينسى التاريخ تلك المواقف الإيمانية البطولية لهؤلاء المسلمين الأوائل، الذين كانوا قدوة لأصحاب المبادئ في كل زمان ومكان.

إن أعداء الإسلام في كل زمان ومكان، لم يكفوا ولن يكفوا عن استخدام كافة الوسائل والأساليب لإطفاء نور الإسلام ومحاربة دعائه، وربما تتجدد الأساليب والوسائل، ولكنها لا تخرج في مضمونها عن تلك الأساليب التي مارسها كفار قريش ضد المسلمين المستضعفين بمكة.

وسيطول بنا الشرح إذا وقفنا عند كل أسلوب، وذكرنا له أمثلة من واقع حركة الإسلام وسط المجتمعات والشراذم الرافضة لتحكيم شرع الله عز وجل.

كان من جليل حكمة الله تعالى أن يقوم مشركو قريش بسلسلة من المساومات مع الرسول ﷺ بعد أن صوّروا في أنفسهم كل ما يمكن أن يظنوه سبباً أو هدفاً وراء دعوته، ورفض الرسول ﷺ قبول كل العروض التي قدموها له مقابل أن يتخلى عن دعوته ليثبت للتاريخ أن هدفه شيء واحد، وهو الإسلام، وليقطع الطريق أمام المتشككين في أهداف دعوته ﷺ، أو فهموا فهماً مغايراً لما كشفت عنه تلك اللقاءات بين الرسول ﷺ وبين مساوميه من الكفار، وكانت سيرته ﷺ فيها بعد تأكيداً ودليلاً على أنه لم يكن يطلب شيئاً غير الإسلام [البوطي: السيرة].

### الأسلوب الثالث عشر: ملاحقة المسلمين خارج مكة والتحريض عليهم:

عندما هاجر بعض المسلمين إلى النجاشي، أرسلوا خلفهم من حاول اللحاق بهم قبل العبور إلى الحبشة، وعندما استقروا بالحبشة وكثر عددهم، أرسلوا في طلبهم، واستخدموا في ذلك الرشوة والحيلة للوقية بين المسلمين والنجاشي، ولكنهم فشلوا في ذلك.

وسياتي بيان ذلك في هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة وهجرة المدينة.

الأسلوب الرابع عشر: المقاطعة العامة؛ سيأتي ذكرها في مكانها من هذا الكتاب (مبحث ٢٨).

الأسلوب الخامس عشر: محاولة قتل الرسول ﷺ؛ يأتي ذكره مفصلاً.

الأسلوب السادس عشر: شن الحرب عليه؛ سيأتي ذكر ذلك من خلال أبحاث وفصول الكتاب.

### ● المبحث الثالث والعشرون: مكان اللقاء

كان الرسول ﷺ يلتقي سرّاً بالداخلين في الإسلام، ليعلمهم ما ينزل به الوحي من تعاليم الدين. وفي السنة الخامسة من ابتداء الدعوة اختار الرسول ﷺ منزل أحد المسلمين، وهو الأرقم بن أبي الأرقم، ليلتقي بأكبر عدد منهم، وحافظوا على كتمان سرية هذا المكان [البداية]، لأن عامة الصحابة كانوا يخفون إسلامهم، ولذا فمن الحكمة اتباع السرية لما فيها من مصلحة للمسلمين وللإسلام، أما لماذا اختار الرسول ﷺ دار الأرقم بالذات؟ أجاب عن هذا السؤال - استنتاجاً - المباركفوري، فقال: (لأن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه، ولأنه من بني مخزوم التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم، إذ يستبعد أن يختفي الرسول ﷺ في قلب العدو، ولأنه كان فتىً صغيراً عندما أسلم، في حدود الست عشرة سنة، إذ إنه في هذه الحالة تنصرف الأذهان إلى منازل كبار الصحابة).

ويلحظ أن دار الأرقم [هي الدار التي تعرف الآن بدار الخيزران عند الصفا كما قال الشامي في السبل (٢/٤٣٠)] كانت قرب الصفا، وهي منطقة تشد فيها حركة الناس بصورة طبيعية، مما يصعب معه إدراك وجود حركة خاصة بأناس تجتمع وتنفض في هذه الدار.

وعندما شك الكفار في وجود مكان يلتقي فيه المسلمون، كان كل الذي توصلوا إليه أنه يلتقي بهم في دار عند الصفا [ابن إسحاق].

إن مراعاة السرية والكتمان في حياته ﷺ واضحة في مواقف كثيرة منها هذا الموقف. وهذا من باب أن اتخاذ الأسباب لا يتنا في مع التوكل على الله عز وجل.

## المبحث الرابع والعشرون: الهجرة إلى الحبشة

### أ- الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة، فرارًا بدينهم من بلاد الفتنة إلى بلاد الأمان [البخاري]. روى ابن إسحاق [في السير، بسند حسن]، من حديث أم سلمة، قالت: «لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه، فخرجنا إليها حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلمًا...».

روى ابن سعد أنهم خرجوا متسللين سرًا، وكانوا أحد عشر رجلًا وأربع نسوة، حتى انتهوا إلى الشعبية، منهم الراكب والماشي، ووفق الله تعالى للمسلمين ساعة جاؤوا سفينتين للتجار حملوهم فيها إلى أرض الحبشة بنصف دينار. وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نبي رسول الله ﷺ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا، فلم يدركوا منهم أحدًا.

وذكر ابن سعد في رواية ثانية أسماء اثني عشر رجلًا وأربع نسوة، ووافق في ذلك ابن سيد الناس، وزاد عليه امرأة خامسة، وهي أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، زوجة

أبي سبرة. وروى ابن إسحاق [في السيرة والسير] أنهم كانوا عشرة من الرجال وأربع نسوة. إذ إنه لم يذكر فيهم ابن مسعود، وذكر حاطبًا بالشك: (ويقال...).

ووافق الذهبي [في السيرة]، ابن إسحاق في عدد الرجال والنساء ولكنه ذكر أبا سبرة ولم يذكر أبا حاطب أو حاطبًا، ولم يذكر ابن مسعود. وذكر عروة [في مغازيه]، أنهم كانوا أحد عشر رجلًا وأربع نسوة، وذكر فيهم ابن مسعود ولم يذكر حاطبًا.

وكان ضمن هؤلاء المهاجرين: أبو سلمة بن عبد الأسد، وزوجه أم سلمة بنت أبي أمية، أم المؤمنين فيما بعد، وراوية الحديث الطويل في قصة الهجرة، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وعثمان بن عفان، وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ.

وقد قال الرسول ﷺ في عثمان ورقية رحمتهما: «إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام» [البيهقي: الدلائل]. ولعل المعنى: من أول بيت نبي

وعرفت هذه الهجرة بالهجرة الأولى إلى الحبشة، وذكر ابن هشام أنه كان عليهم عثمان بن مظعون رحمته.

لم يمكث هؤلاء المهاجرون طويلاً بالحبشة حتى بلغتهم الأخبار بأن أهل مكة قد أسلموا، فلذا قرروا العودة إلى وطنهم مكة في شوال من السنة نفسها.

وعندما اقتربوا من مكة علموا بأن الذي بلغهم كان مجرد إشاعة، وعرفوا أن نار العداوة ما زالت مشتعلة. فرجع منهم من رجع إلى الحبشة، ومن دخل منهم مكة دخلها مستخفياً أو في جوار رجل من قريش [ابن سعد وابن إسحاق].

ويزعم بعض الناس أن سبب رجوعهم كان لوقوع هدنة حقيقية بين الإسلام والوثنية، أساسها أن محمداً ﷺ تقرب إلى المشركين بمدح أصنامهم والاعتراف بمنزلتها، إذ زعموا أنه قرأ على المشركين سورة النجم حتى وصل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ

أَلَلَّتْ وَالْعُرَىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةٌ الثَّلَاثَةُ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾ [النجم: ١٩-٢٠]، ألقى الشيطان في أذان المشركين قوله: (تلك الغرائق العلى وأن شفاعتهن لترتجى) فسجد وسجد معه كفار مكة. فلما بلغهم ذلك في الحبشة ظنوا أن القوم قد أسلموا لهذه القصة المزعومة.

وممن روى هذه القصة ابن سعد، والطبري [في التفسير]، والبيهقي [في الدلائل]، ولم يروها أحد من أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد ولا غيرهم من أصحاب الكتب المعتمدة على التحرير. وهي باطلة من حيث السند وال متن.

والذي ثبت في الصحيح [البخاري] أن الرسول ﷺ قرأ سورة النجم، في جماعه من المسلمين والمشركين، وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب. فلما أخذ صوت الرسول ﷺ يهدر بها ويرعد بنذرهما حتى وصل إلى قول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةُ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَعَسَّهَا مَا عَشَىٰ ﴿٥٤﴾ فَبَأَىٰ آءَ آءِ رَبِّكَ تَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَرَفَتِ الْأَرِيفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ [النجم: ٥٣-٦١]، كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين، مع غيرهم من المسلمين، حتى إن الوليد بن المغيرة - وكان كبير السن - أخذ كفاً من البطحاء وسجد عليه. فلما نكسوا على رؤوسهم وأحسوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم، ندموا على ما كان منهم، وأحبوا أن يعتذروا عنه، بأنهم ما سجدوا مع محمد ﷺ إلا لأن محمداً ﷺ عطف على أصنامهم بكلمة تقدير... [الغزالي: فقه السيرة].

## ب- الهجرة الثانية إلى الحبشة:

عندما عاد بعض من هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة، ووجدوا أن الابتلاء الواقع على المسلمين أصبح أشد مما كان، ولما رأى الرسول ﷺ حالهم، أذن لهم بالهجرة مرة ثانية، وكانوا هذه المرة نيفاً وثمانين رجلاً وتسع عشرة امرأة. [ابن إسحاق] وقيل غير ذلك.

فقد روى الإمام أحمد [في المسند، بسند حسن] أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ونحن نحوًا من ثمانين رجلاً، فيهم جعفر، وعبد الله بن عرفطة وعثمان بن مظعون، وأبو موسى،...» ولم يذكر عدد النساء. وذكر ابن سعد أن عدد الرجال ثلاثة وثمانين رجلاً وعدد النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبع غرائب. وذكر ابن إسحاق [في السيرة] أنهم كانوا نيفًا وثمانين رجلاً، وذكر أسماء ست عشرة امرأة، وذكر في السيرة أنهم كانوا ثلاثة وثمانين رجلاً، وإذا اعتبرنا من ولدت ريطة بنت الحارث، فيكون عدد النساء عنده عشرين امرأة، وقد ذكر ابن القيم [في الزاد، من حديث ابن إسحاق] أنهن تسع عشرة امرأة، والله أعلم. ويبدو أن الاختلاف في عدد النساء يرجع إلى أن البعض يعد فيهن بعض الفتيات الصغيرات.

ويشهد بقبول ما جاء عند أهل المغازي والسير في عدد المهاجرين هذه المرة، رواية أحمد المذكورة من حديث ابن مسعود.

### ج- قريش تسعى لإعادة المهاجرين؛

روى ابن إسحاق [في السيرة والسير، بسند حسن]، من حديث أم سلمة رضي الله عنها في هجرة الحبشة، أنها قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خيرَ جَارِ النجاشي، أَمْنَا على ديننا، وَعَبَدْنَا الله تعالى لا نُؤذِي ولا نسمع شيئًا نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدَيْن، وأن يَهْدُوا للنجاشي هدايا مما يُسْتطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأَدَمُ [الجلود]، فجمعوا له أَدَمًا [جلودًا] كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقتة بطريقًا إلا أهدوا له هدية. ثم بعثوا بذلك عبد الله ابن أبي ربيعة [أحمد: المسند، بسند حسن] وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي

هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم. فخرجا حتى قدما على النجاشي... فلم يبق من بطارقتة بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلم النجاشي، وقال لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم...».

وفي الحديث أن الوفد اتفق مع البطارقة أن يشيروا على النجاشي بأن يسلمهم إليهم ولا يكلمهم. ولكن النجاشي عندما أشير إليه بذلك رأى أن يدعو المسلمين ويستمع بنفسه إلى ما يقولونه. وعندما حضروا أمامه تكلم نيابة عنهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فأوضح للنجاشي حقيقة الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وموقف قومهم منه.

وعندما طلب النجاشي شيئاً مما جاء به صلى الله عليه وسلم قرأ عليه جعفر صدر سورة مريم. فبكى النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكى أساقفته حتى ابتلت كتبهم التي يحملونها. ثم قال النجاشي مخاطباً سفير قريش: «إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبداً».

وعندما خرجا، قال عمرو لعبد الله: «والله لآتينه غداً بما يبید خضراءهم».

فلما كان الغد جاء عمرو إلى النجاشي وقال له: «إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً». فأرسل النجاشي إليهم، وعندما جاؤوه سأهم عن قولهم في المسيح، فقال جعفر: «نقول فيه الذي جاءنا به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، وقال لجعفر: «ما عدا عيسى ما قلت قدر هذا العود». ولم يأبه لا متعاض بطارقتة، فأعطى المسلمين الأمان في بلاده، ورد هدية قريش

[ابن إسحاق: السير والمغازي، حديث أم سلمة].

أخفت سفارة قريش في مهمتها، ولم تجد قريش أمامها غير التشفي ممن هم تحت أيديها. أما الإسلام فقد كسب إلى جانبه النجاشي وعمرو بن العاص، كما سيأتي ذكره. ومكث المسلمون ما شاء الله لهم، فعاد من عاد منهم بعد هجرة المسلمين إلى المدينة وقبل وقعة بدر، وهم ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمانين نسوة [البخاري وغيره]. وعاد الباقر مع جعفر عليه السلام عندما فرغ الرسول ﷺ من فتح خيبر في العام السابع الهجري [البخاري وغيره].

### د - حكر وعظمت وعبر من هذا المقطع:

١ - إن في هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة دليلاً على مشروعية الهجرة، وهي الانتقال من بلد الكفر حيث يتعذر على العبد أن يعبد الله ﷻ، إلى دار يتمكن فيها من عبادة الله ﷻ بدون فتنة. وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام عن هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

٢ - إن من أسس ودعامات الدين التضحية بالمال والوطن والنفس في سبيله، لأن الدين إذا فقد لم يغن من ورائه المال والوطن والنفس، بل سرعان ما يذهب كل ذلك أيضاً من ورائه، أما إذا قوي شأنه وقامت في المجتمع دعائمه ورسخت في الأئمة عقيدته، فإن كل ما كان قد ذهب في سبيله من مال وأرض ووطن يعود أقوى من ذي قبل، حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة. ولذا كانت الهجرة نفسها ضرباً من ضروب العذاب والألم في سبيل الدين وتضحية بالوطن والمال، وتبديل محنة أقسى بأخرى أقل قسوة ريثما يأتي الفرج والنصر.

٣ - يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، سواء أكان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي النصراني، والذي أسلم بعد ذلك، أو كان مشركاً كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم، وكأبي طالب الذي حمى الرسول ﷺ، والمطعم بن عدي الذي حمى النبي ﷺ عندما عاد من الطائف [البوطي].

٤- إن في ارتداد عبيد الله بن جحش - إن صحت الرواية - عظه لمن يتعظ أو عبرة لمن يعتبر. فقد استكبر على المسلمين، لأنه كان أولاً من الحنفاء، ثم أسلم وهاجر مع زوجته أم حبيبة رضي الله عنها إلى الحبشة، ثم ارتد إلى النصرانية، وكان يقول للمسلمين: «فَتَّخْنَا وَصَاصَاتُمْ»، أي قد أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر ولم تُبصروا بعد. وذلك أن ولد الكلب إذا أراد أن يفتح عينيه للنظر صاصاً قبل ذلك، فضرب ذلك له ولهم مثلاً [ابن هشام، بسند صحيح]، [يأتي تحقيق العوشن لهذه الرواية].

### المبحث الخامس والعشرون: إسلام النجاشي

ذكر ابن إسحاق [في السيرة] في رواية له أن النجاشي لما مات كان يُتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور. ويفهم من هذه الرواية الصحيحة أنه قد أسلم.

وذكر في رواية أخرى أن قومه خرجوا عليه لأنه أسلم، وقبل أن يخوض حرباً ضدهم هياً للمسلمين سفناً ليركبوها إذا انهزم، وكتب كتاباً يشهد فيه بإسلامه.. وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم. فلما مات النجاشي استغفر له [والبخاري ومسلم].

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق موافق في جوهره لما في الصحيحين فيما يتعلق بإسلام النجاشي. فقد روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، في العام التاسع الهجري، وصلى بالمسلمين صلاة الغائب عليه. وروى البخاري ومسلم أيضاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش فهلّم فصلوا عليه»، وهذا لفظ البخاري.

وهذا النوع من النعي هو الجائز لأنه لمجرد الإخبار ليدعوا له إخوته في الله تعالى. أما النعي للمفاخرة والمكاثرة فمكروه، والنعي بصفات الميت فحرام [انظر موطأ مالك في تبويب هذه المسألة].

وفي رواية لمسلم، قال الرسول ﷺ: «إن أخا لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه...». وهذا الحديث صريح في أنه مات على الإسلام. واسمه أصحمة [مسلم برقم ٩٥٢]. ويفهم من عموم النصوص الواردة عن إسلام النجاشي في المصادر المختلفة أنه جهر بإسلامه أمام الصحابة رضي الله عنهم وبمحضر من أساقفته، ولم يقبل البطارقة والأساقفة هذا التحول، فغضبوا منه وألبوا عليه الناس، وقامت ضده ثورة ولكن الله نصره عليهم، ولم تتوقف الحرب إلا بعد أن خدعهم تقيية، «والحرب خدعة» كما صح عن الرسول ﷺ: «وذلك أنه عمد إلى كتاب كتب فيه إقراره بالتوحيد ونبوة محمد ﷺ، ويشهد أن عيسى عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قبائه [ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق عليه] عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة، وصدقوا له، فقال: يا معشر الحبشة ألسن أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما بكم؟ قالوا: فارقت ديننا!!! وزعمت أن عيسى عبده ورسوله، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول هو ابن الله، فقال النجاشي: ووضع يده على صدره على قبائه: وهو يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا، وإنما يعني على ما كتب، فرضوا، وانصرفوا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ. فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له» [البخاري وغيره].

## ● المبحث السادس والعشرون: إسلام حمزة وعمر

### أ- إسلام حمزة رضي الله عنه :

لم يوقف اضطهاد المشركين للمسلمين دخول صناديد قريش في الإسلام. ففي هذا الجو المشحون بالأحقاد على المسلمين عامة والرسول ﷺ خاصة، شاء الله تعالى أن يكون حقد أبي جهل على الرسول ﷺ سبباً في إسلام حمزة عم الرسول ﷺ وأحد أشداء

قريش . فقد روى ابن إسحاق [في السيرة] وابن سعد أن أمةً لعبد الله بن جُدعان أخبرت حمزة أن أبا جهل قد أساء إلى ابن أخيه محمد ﷺ إساءات بذيئة . فلم يتردد في المجيء إلى أبي جهل وهو في مجلسه من قومه، فضربه بالقوس على رأسه فشججه شجة منكرة، وقال له: «أتشتمه وأنا على دينه؟»... فكانت تلك بداية انشراح صدر حمزة للإسلام.

وعندما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنع عنه الأذى، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه [ابن إسحاق: السيرة].

وكان إسلام حمزة بعد دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم في السنة السادسة من النبوة [ابن سعد].

### ب- إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

لقد كان عمر رضي الله عنه من ألد خصوم الإسلام، وكان معروفًا بحدة الطبع وقوة الشكيمة، وكثيرًا ما لقي بعض المسلمين منه صنوفًا من الأذى والتنكيل.

قال سعيد بن زيد رضي الله عنه، قريبه وزوج أخته [من رواية أحمد في الفضائل، بسند صحيح]: «والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم...». وفي رواية: «لو رأيتني موثقي عمر على الإسلام أنا وأخته وما أسلم...» [البخاري].

وروى ابن إسحاق [في السيرة والسير، بسند حسن] أن ليلي - أم عبد الله - زوجة عامر ابن ربيعة، قالت: «والله إنا لنرتحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عمر - وهو على شركه - حتى وقف عليّ، وكنا نلقى منه البلاء، فقال: أتنتلقون يا أم عبد الله؟ قالت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، فقد آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجًا. قالت: لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا... قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم. فقال: لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب»، وذلك لما كان يراه عامر من شدة عمر وغلظته على المسلمين.

وفي هذا الخبر دليل على نوازع الفطرة السليمة التي كانت تصطرع في نفسه مع غشاوات الجاهلية، إلى أن حانت ساعة جلاء هذه الغشاوة عن فطرته السليمة، فدخل في الإسلام، وتحولت شدته من شدة في الباطل إلى شدة في الحق.

وعندما شرح الله ﷺ صدره للإسلام قال: «أي قريش أنقل للحديث؟» فقيل له: جميل بن مَعْمَر الجَمَحِيّ، فجاءه عمر فأخبره بإسلامه. فأسرع جميل إلى الكعبة، وصرخ في القوم بأعلى صوته، قائلاً: «ألا إن عمر صبأ»، وعمر خلفه يقول: «كذب، ولكن قد أسلمت...» ودخلوا معه في عراك طويل حتى أنقذه الله ﷺ منهم بالعاص بن وائل السهمي [أحمد: الفضائل؛ ابن إسحاق: السيرة والسير، بسند حسن].

أما القصة المشهورة في سبب إسلامه والتي تقول إنه كان في طريقه إلى محمد ﷺ لينال منه، فلقيه رجل علم منه ما يريد فتعجب منه لأن لا يعلم بإسلام أخته وزوجها. فغضب عمر وذهب إلى أخته وزوجها ووجد معها خبأباً... فضربها حتى سال الدم منها، ثم وجد معهم آيات من سورة طه، فقرأها بعد أن أمرته أخته بالاغتسال إذا أراد مسّها... ثم أسلم وذهب إلى الرسول ﷺ ليعلن إسلامه... ورد جوار خاله العاصي ليضرب ويضرب كما هو حال المستضعفين من المسلمين إلى أن أعز الله الإسلام... هذه القصة لم ترد بإسناد صحيح مقبول عند المحدثين، وإن كان بعض أجزاءها قد ورد بأسانيد حسنة. فقد ضعّفها وصي الله [حاشية الفضائل لأحمد]، وهمام، وأبو صعيك، [حاشية سيرة ابن هشام] وغيرهم.

لقد كان إسلام عمر استجابة من الله تعالى لدعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به، وهو: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر ابن الخطاب» [أحمد: المسند، بسند حسن].

فقد أعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب. وفي هذا روى البخاري عن ابن مسعود أنه قال: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب».

ورويت آثار كثيرة في إعزازه الإسلام، دلت على دوره الكبير في نصرته الإسلام، من ذلك:

روى ابن إسحاق [في السيرة] عن عمر رضي الله عنه، قال: «لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة، قال: قلت: أبو جهل، فأتيت حتى ضربت عليه بابه، فخرج إليّ، وقال: أهلاً وسهلاً، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وصدقت بما جاء به. قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به».

وروى ابن مسعود قال: «إن إسلام عمر كان فتحاً وإن هجرته كانت نصراً وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه» [ابن إسحاق: السيرة].

وروي عن صهيب الرومي أنه قال: «لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعا إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقاً، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به» [ابن سعد].

وروي عن ابن عباس أنه قال: «لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا» [أحمد: فضائل الصحابة].

وروى ابن سعد من حديث محمد بن عبيد: «لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر، قاتلهم حتى تركونا نصلي».



٢- إن في نهوض الرسول ﷺ للقاء عمر بن الخطاب عندما جاء إلى المسلمين في دار الأرقم، وأخذه بِحُجْزَتِهِ [أي معقد السراويل والإزار] أو بمجمع رداءه، ثم جبذه جبذة شديدة، ثم تهديده، إن في هذا مثالا عالياً للشجاعة في موطن الشدة. وهو ما ستلمسه يتكرر في مواطن أخرى كثيرة، مثل موقفه يوم أحد ويوم حنين.

## المبحث السابع والعشرون: المقاطعة

### أ- المقاطعة العامة:

لما رأت قريش أن عدد الداخلين في الإسلام قد ازداد، وأن وسائلها وأساليبها السابقة في محاربتهم وقمعهم لم تُجد شيئاً، خاصة بعد إسلام حمزة وعمر، أعادت النظر في تلك الأساليب والوسائل، ثم اتخذت أسلوباً آخر، أقسى وأشمل من الأساليب السابقة، وهو أسلوب المقاطعة العامة.

قال ابن إسحاق [في السيرة والسير] وموسى بن عقبة [كما في دلائل البيهقي] وعروة ابن الزبير [في معازيه] وابن سعد وغيرهم من أصحاب المغازي إنه لما رأت قريش أن الصحابة قد نزلوا أرضاً أصابوا بها أمناً وأن عمر وحمزة أسلموا، وأن الإسلام فشا في القبائل، أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب، فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ومنعوه ممن أراد قتله، فأجابوه إلى ذلك حتى كفارهم فعلوا ذلك حمية على عادة الجاهلية. فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على أن لا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ. ففعلوا ذلك وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، وكان كاتبها منصور بن عكرمة، الذي دعا عليه الرسول ﷺ فشلت بعض أصابعه، ويقال النضر بن الحارث، وقيل طلحة بن أبي طلحة. فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب. فكانوا معه كلهم إلا أبا لهب، فكان مع

قريش . وقيل كان ابتداء حصرهم في المحرم سنة سبع من المبعث . فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً . وجزم موسى بن عقبة [كما نقله عنه الذهبي في السيرة وابن حجر في الفتح] بأنها كانت ثلاث سنين، حتى جهدوا، ولم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا خفية، حتى كانوا يؤذون من اطلعوا على أنه أرسل إلى بعض أقاربه شيئاً من الصلوات، إلى أن قام في نقض الصحيفة نفر من أشدهم في ذلك ضيقاً، وهم: هشام بن عمرو ابن الحارث، وزهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وزمعة بن الأسود، وأبو البخترى ابن هشام بن الحارث . وكانت تربطهم ببني هاشم والمطلب صلوات الأرحام .

روى ابن أبي شيبة [في مغازيه]: «نادى منادي رسول الله ﷺ يوم بدر: ليس لأحد من القوم - يعني أماناً - إلا أبا البخترى، فمن كان أسره فليخل سبيله، فإن رسول الله ﷺ قد آمنه، فوجدوه قد قتل». قلت: وذلك للمعروف الذي أداه إلى المسلمين حين سعى مع غيره لنقض صحيفة المقاطعة الجائرة .

وذكر ابن هشام أنهم وجدوا الأَرْضة قد أكلت جميع ما فيها إلا اسم الله تعالى . وأما ابن إسحاق [في السيرة] وموسى بن عقبة [كما ذكر ابن حجر في الفتح] وعروة [في مغازيه] فذكروا عكس ذلك .

قالوا إن الأَرْضة لم تدع اسماً لله إلا أكلته، وبقي ما بها من الظلم والقطيعة . والمعنى المقصود عندهم جميعاً واحد، وهو أنهم أرادوا أن يقولوا أن اسم الله تعالى لا يجتمع مع عبارات الظلم والقطيعة .

قال السهيلي: (وفي الصحيح: أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الحَبَطَ وورق السَّمْرِ، حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة، وكان فيهم سعد بن أبي وقاص، الذي روي أنه قال: لقد جعت حتى أني وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعتة في فمي وما أدري ما هو إلى الآن).

وفي رواية يونس بن بكير [ابن إسحاق في السير] أن سعداً قال: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة، فخرجت من الليل أبول، فإذا أنا أسمع قعقعة شيء تحت بولي، فنظرت فإذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها [أي: شواها]، فرضضتها [أي سحنها] بين حجرين، ثم استفتتها، فشربت عليها الماء، فقويت عليها ثلاثاً».

وكانوا إذا قدمت العير مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام لعياله، فيقوم أبو لهب - عدو الله - فيقول: «يا معشر التجار: غالوا على أصحاب محمد، حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم»، فيزيدون عليهم في السلعة أضعافاً حتى يرجع إلى أطفاله، وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشترؤا من الطعام واللباس، حتى جهد المؤمنون، ومن معهم جوعاً وعرياً... وهلك من المحاصرين من هلك كما قال ابن عباس [أبو نعيم: الدلائل].

ومع هذه المقاطعة وما جرى للمسلمين وراءها من معاناة لم يتوقف الرسول ﷺ عن الدعوة، فقد كان يخرج في المواسم، ويلتقي القادمين على مكة، ويعرض عليهم الإسلام، ويعرض ذلك على كل من يتصل به من قومه [ابن هشام]. ولما أفسد الله عز وجل الصحيفة، خرج رسول الله ﷺ ورهطه وصحابته رضي الله عنهم، وخالطوا الناس [عروة: والمغازي؛ الذهبي: السيرة، من حديث ابن عقبة].

## ب- عظات وعبر من هذا المقطع:

إضافة إلى ما ذكرته عند الكلام عن العظات والعبر المستفادة من أساليب المشركين فإنني أضيف إلى ذلك هنا:

١- لا يخلو زمان ولا مكان من أهل المروءة، وعلى الدعاة أن يسعوا دائماً إلى الاهتمام بمن يتوسم فيهم هذه الخصلة للاستفادة منهم في أوقات الشدائد والمحن.

٢- إن أعداء الله ﷺ في كل زمان ومكان يلجؤون إلى استخدام سلاح محاربة الدعاة في أرزاقهم ليستكينوا ويرجعوا عما يدعون إليه. وهو أسلوب يتفق عليه المشركون والمنافقون. ولو كان المسلمون الأوائل موظفين أو مستخدمين في دولة تخالفهم فيما يدعون إليه، للجات تلك الدولة إلى فصلهم من أعمالهم كوسيلة من وسائل الحرب التي تتخذها ضدهم.

ولكن الوسيلة المتاحة في ذلك الزمان في هذا الميدان كانت المقاطعة العامة بتلك الكيفية التي وقفنا عليها. وعلى الدعاة أن يعوا هذه الحقيقة بأبعادها المختلفة.

٣- إن ما أصاب الرسول ﷺ من ابتلاءات عزاء لكل مؤمن فيما يصيبه في هذه الحياة من بلاء ومصائب.

٤- لا تكاد تخلو جاهلية من الجاهليات القديمة أو الحديثة من قيم يمكن الاستفادة منها، فقد ضحى بنو هاشم تضحيات كبيرة في سبيل قيمهم الجاهلية الخاصة بحماية القريب، واستفاد الإسلام من هذه التضحيات. وإذا وجدت قيم في مجتمعاتنا المعاصرة، مثل قوانين حقوق الإنسان أو اللجوء السياسي أو الحرية الفكرية، فلا ضير في الاستفادة منها كما استفاد المسلمون الأوائل من مؤازرة بني هاشم لهم في حصار الشعب.

## المبحث الثامن والعشرون: وفاة عمه

### أ- وفاة أبي طالب:

مات أبو طالب سنة عشر من المبعث، بعد الخروج من الشعب بزمن يسير [كما روى ابن سعد]. وقيل توفي في رمضان، قبل خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام [كما روى الحاكم والبلاذري]، وقبل الهجرة بثلاث سنين، [كما روى ابن إسحاق في السيرة وابن سعد]. وقيل كان بين وفاته ووفاة خديجة شهر وخمسة أيام، [كما روى ابن سعد].

وقد ثبت في الصحيح أنه مات كافرًا على الرغم من حمايته للرسول ﷺ طوال حياته. فقد روى البخاري ومسلم عن ابن المسيب أن الرسول ﷺ دخل على أبي طالب عندما حضرته الوفاة، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال له النبي ﷺ: «يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله ابن أبي أمية: «يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟». فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] الأيتين، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

وروى مسلم أيضًا بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة»، قال: «لولا أن تعيرني قريش، يقولون إنما حملة على ذلك الجزع لأقررت بها عينك». فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وروى مسلم وعبد بن حميد [في المنتخب] وأحمد [في المسند]، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أهون أهل النار عذابًا أبو طالب، وفي رجليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه»، واللفظ لابن حميد. ومن ألفاظ مسلم: «... وهو متعل بنعلين يغلي منهما دماغه»، وفي رواية أخرى له: «... وهو متعل نعلين من نار يغلي منهما دماغه».

أما الروايات التي تدل على أن أبا طالب قد نطق بكلمة الإسلام عند موته فلم يصح منها شيء. وما في الصحيح صريح على وفاته كافرًا، فلا يعارض. [ابن حجر: الفتح؛ والإصابة؛ الذهبي: السيرة].

## ب- الحكمة من وفاة أبي طالب قبل قيام الدولة الإسلامية:

- ١ - سبق القول إن موت أبي طالب كافرًا كان لحكمة يعلمها الله تعالى.
- ٢ - لقد شاء الله ﷻ أن لا يسلم أبو طالب، ويموت قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات، حتى لا يتوهم أحد أن له مدخلًا في دعوة الرسول ﷺ، أو يظن أن المسألة قبيلة أو أسرة وزعامة ومنصب [البوطي]. وربما هناك حكم يعلمها الله ﷻ ولم نتوصل إليها.

### فائدة:

يروى أن أبا هب حمى الرسول ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب ونال من أبي الغيطة عندما سب رسول الله ﷺ، واحتالت قريش عليه ليرفع حمايته عن الرسول ﷺ، فأرسلت عقبة بن أبي معيط وأبا جهل إلى أبي هب ليسأل الرسول ﷺ عن عبد المطلب، فقال له الرسول ﷺ: «مع قومه»، فخرج إليهما أبو هب وقال: «قد سألته، فقال: مع قومه، فقالا: يزعم أنه في النار. فقال: يا محمد! أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار، فقال أبو هب: والله لا برحت لك إلا عدوًّا أبدًا، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار»، واشتد عند ذلك أبو هب وسائر قريش عليه. [البداية].

انظر كيف كان ﷺ صريحًا، لا يجامل ولا يميّع قضية الإسلام مهما كانت النتائج.

## • المبحث التاسع والعشرون: وفاة خديجة رضي الله عنها

تباينت الروايات حول تاريخ وفاتها، فقليل: بعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين، أو شهر وخمسة أيام، أو بثلاثة أيام، وقيل غير ذلك. وقيل: إن ذلك كان في رمضان من السنة العاشرة من المبعث وقبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، وهو المشهور [قلعه جي:

حاشية دلائل البيهقي].

وعندما مات أبو طالب وخديجة في عام واحد وبينهما مدة يسيرة، تتابعت المصائب. فقد كان أبو طالب درعاً حصيناً للنبي ﷺ، وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام، يسكن إليها عند الشدائد [كما روى ابن إسحاق في السيرة والسير]. وقد وردت آثار كثيرة تدل على فضلها ومكانتها عند الله ورسوله [أحمد: فضائل الصحابة].

ومما يروى في ذلك أنه لما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياته، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فشر على رأسه تراباً [ابن إسحاق: السيرة]، ودخل على بيته وعلى رأسه التراب، فغسلته عنه إحدى بناته وهي تبكي، والرسول ﷺ يقول لها: «لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك»، ويقول بين ذلك: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب» [ابن هشام بسند مرسل حسن]. وقد سبق القول إنهم تجرؤوا على وضع سلا الجزور بين كتفيه وهو ساجد.

ولتوالي مثل هذه الآلام في هذا العام، فقد سماه بعض المؤرخين عام الحزن، ولم يرو أن النبي ﷺ سماه بهذا الاسم، كما ذكر السيوطي وغيره [الألباني: دفاع]. ونميل إلى أن سبب حزنه كان لشدة ما كابد في هذا العام من الشدائد في سبيل الدعوة، وتضييق قريش الخناق عليه في محاولة منهم لإغلاق أبواب الدعوة في وجهه.

### ● المبحث الثالثون: زواجه من سودة رضي الله عنها

● ومع المحن والشدائد التي كان يعيشها الرسول ﷺ في هذه الفترة إلا أنه لم يألو جهداً في مواصلة أصحابه في مصائبهم.

ففي شوال من السنة العاشرة لمبعثه تزوج سودة بنت زمعة رضي الله عنها. لقد كانت سودة من أوائل المسلمين، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة مع زوجها السكران بن عمرو، فتوفي عنها، وتقديراً لها تزوجها الرسول ﷺ. وسيأتي ذكر حكمة هذا الزواج عند الكلام عن أمهات المؤمنين.

## • المبحث الحادي والثلاثون: رحلة الطائف

### أ- هجرته ﷺ إلى الطائف:

لما مات أبو طالب ونالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصره من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه الإسلام [أحمد: المسند، بسند جيد؛ ابن هشام].

روى ابن حبيت في (المحبر) أنه خرج إلى الطائف بعد موت خديجة بثلاثة أشهر وثمانية أيام. وعند مغلطاي [في السيرة] بثلاثة أشهر، في ليالٍ بقين من شوال سنة عشر من البعثة، ومعه زيد بن حارثة رضي الله عنه، كما روى ابن سعد.

وروى ابن إسحاق [في السيرة] أن الرسول ﷺ عندما ذهب إلى الطائف التقى سادة ثقيف يومذاك، أبناء عمرو بن عُمَيْرِ الثلاثة: عَبْدُ يَالِيلٍ ومسعود وحييب، وعرض عليهم الإسلام، فلم يقبلوه منه، وسخروا منه، وعندما يئس من خير في ثقيف طلب منهم أن يكتموا عنه ما دار بينهم وبينه حتى لا يثيروا عليه الناس.

ولكنهم لم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فأخذوا في سبِّه والصياح به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف، وجلس في ظل شجرة عنب، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء الطائف.

فلما اطمأن في جلوسه، قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن

عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مَنْ أَنْ تُنْزَلَ بِي غَضَبِكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

وعندما رآه ابنا ربيعة على هذه الحال، تحركت فيهما عاطفة الرحم، فأمرًا غلامًا نصرانياً يدعى عَدَّاسًا أن يقدم له عنبًا.

وتعجب عداس من قول الرسول ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ» قبل أن يأكل. وزال عجبه عندما أعلمه الرسول ﷺ بأنه نبي، فأخذ يقبل رأس النبي ﷺ ويديه وقدميه. وحاول ابنا ربيعة أن يصداه عن النبي ﷺ قائلين له: «لا يصرفناك عن دينك، فإن دينك خير من دينه».

وفي رواية موسى بن عقبة [في دلائل البيهقي]، أن سفهاء الطائف قعدوا للرسول ﷺ صَفَيْنَ عَلَى طَرِيقِهِ، فَلَمَّا مَرَّ بَيْنَ صَفِيَّهِمْ جَعَلُوا لَا يَرْفَعُ رِجْلِيهِ وَلَا يَضَعُهَا إِلَّا رَضَخُوهُمَا بِالْحِجَارَةِ، وَكَانُوا أَعْدُوَهَا، حَتَّى أَدْمَوْا رِجْلِيهِ. وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَشَدِّ مَا لَقِيَ الرَّسُولَ ﷺ فِي جِهَادِهِ.

وعندما لاقى الرسول ﷺ ما لاقى من الابتلاء والشدة في الطائف، عاد إلى مكة مهمومًا. وعندما بلغ قرن الثعالب - قرن المنازل - بعث الله ﷻ إليه جبريل ﷺ، ومعه ملك الجبال، وجعله رهن إشارته، إذا أراد أن يطبق الأَخْشَبِينَ عَلَى أَهْلِ الطَّائِفِ، وَكَانَ ذَلِكَ دَعْمًا مَعْنَوِيًّا كَبِيرًا لَهُ. [والأخشبان جبلا مكة: أَوْ فَيْسٍ وَالَّذِي يَقَابِلُهُ، وَهُوَ فُعَيْقَعَانُ، وَقِيلَ: الْأَحْمَرُ وَجِبَلَا مَنِ].

وكانت إقامته بالطائف عشرة أيام، كما روى ابن سعد. وذكر مغلطاي [في سيرته] أن إقامته كانت شهرًا.

وروى البخاري ومسلم في هذا أن عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟» قال: «لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أضلنتني، فنظرت فإذا بجبريل، فناداني، فقال: «إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: «يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً».

وجاءه دعم معنوي آخر قبل أن يصل مكة. ألا وهو إيمان بعض الجن برسالته. ففي وادي نخلة، قرب مكة، أقام الرسول صلى الله عليه وسلم أياماً. وخلال هذه الإقامة بعث الله عز وجل إليه نفرًا من الجن، استمعوا إلى القرآن، فأمنوا به. وقد ذكر الله ذلك في سورتي الأحقاف والجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَىٰ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١-١٥].

وقد ثبت خبر قدوم الجن على الرسول صلى الله عليه وسلم في [الصحيحين] أيضًا. وذكر ابن حجر - في الفتح -، أدلة تؤيد ما ذهب إليه ابن إسحاق - في السيرة - وابن سعد، في أن ذلك كان عندما رجع الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف.

لقد شد الله ﷺ أزر نبيه بهاتين الحادثتين، فقام نشطاً في الدعوة إلى الله ﷻ غير آبه بما يواجهه من أساليب الخصوم. فعندما عزم على دخول مكة في عودته من الطائف قال له زيد: «كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك؟» فقال: «يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه».

وأرسل في طلب جوار الأخنس بن شريق، فَجَبُنَ، وتعلل بأنه حليف، والحليف لا يجير كما يقول. وطلب جوار سهيل بن عمرو فرفض بحجة أن بني عمرو لا تجير على بني كعب. وأخيراً أرسل في طلب جوار المطعم بن عدي، فاستجاب لذلك، وتها هو وبنوه لحماية الرسول ﷺ [ابن هشام؛ الفاكهي: أخبار مكة].

ومما قال حسان بن ثابت [ابن هشام] في رثائه له، يشيد بهذا الموقف النبيل:

«أَجَرْتَ رَسُولَ اللَّهِ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا      عَيْدَكَ مَا لَبَّى مُهْلٌ وَأَحْرَمًا  
فَلَوْ سُئِلْتُ عَنْهُ مَعْدُ بِأَسْرِهَا      وَقِحْطَانُ أَوْ بَاقِي بَقِيَّةِ جُرْهُمَا  
لَقَالُوا هُوَ الْمُوفِيُّ بِخُفْرَةِ جَارِهِ      وَذَمَّتْهُ يَوْمًا إِذَا مَا تَذَمَّمَا»

[والخفرة العهد. وتذمم: أي طلب الذمة والعهد والجوار. وذكر الفاكهي، بإسناد حسن، أن حسان بن ثابت رثى المطعم بن عدي لما مات مجازاة له على ما صنع للنبي ﷺ].

وحفظ رسول الله ﷺ للمطعم بن عدي هذا الصنيع، ومن قبله صنيعه في نقض صحيفة المقاطعة، فقال يوم أسرى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء التنن لتركتهم له» [البخاري].

[قال ابن حجر: (وأن المراد باليد المذكورة ما وقع منه حين رجع النبي ﷺ من الطائف ودخل في جوار المطعم بن عدي). والتنن: العفنين].

لم يقيد هذا الجوار حركة الرسول ﷺ وأصحابه في الدعوة إلى الإسلام. فعندما هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة، خرج أبو بكر ﷺ فيمن خرج مهاجرًا إليها، حتى

إذا بلغ برك الغماد، لقيه ابن الدُّغْنَةَ - سيد القارة، وعند ابن إسحاق - سيد الأحابيش - فرده إلى مكة، وأدخله في جواره، قائلاً له: «مثلك يا أبا بكر لا يُخْرَجُ ولا يُخْرَجُ...». واشترطت عليه قريش أن يأمر أبا بكر فيعبد الله في داخل داره، ففعل أبو بكر ما طلب منه. وبنى مسجداً في فناء داره ليصلي فيه. فكان إذا صلى وقرأ القرآن وقف عليه نساء المشركين وأبنائهم، يعجبون منه، لأنه كان يبكي، وهو يقرأ القرآن. فأفزع ذلك قريشاً خشية إيمان الناس بالقرآن، فطلبوا من ابن الدُّغْنَةَ أن يطلب من أبي بكر عبادة ربه في داخل داره من حيث لا يسمعه أحد، وليس في فناء الدار حيث يسمعه الناس. وجاءه ابن الدُّغْنَةَ وقال له: «فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترد ذمتي...» فرد عليه أبو بكر قائلاً: «فإني أرد عليك جوارك، وأرضى بجوار الله ورسوله» [البخاري؛ البيهقي؛ الدلائل؛ ابن إسحاق: السيرة والسير]. [ويقال: الدُّغْنَةُ، واسمه: الحارث بن يزيد؛ والدُّغْنَةُ أمه].

وهذا الموقف يشبه موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما رد جوار خاله العاص، رغبة منه أن يكون في جوار الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم كسائر المستضعفين ممن يترفع الكفار عن إجارتهم.

## ب- عظات وعبر:

١ - إن اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم الثلاثة الذين كانوا سادة ثقيف يومذاك لدليل على أهمية دعوة الزعماء الذين ينساق وراءهم الناس، وعندما رفضوا دعوته علم أن غيرهم سيرفضها، فلذا لم يستغرق مقامه بالطائف وقتاً طويلاً.

٢ - إن صبر الرسول صلى الله عليه وسلم على معارضييه قد بلغ حداً عظيماً. فعلى الرغم مما واجهه به أهل الطائف من سوء في المعاملة إلا أنه لم يطلب من الله تعالى عقابهم، بل دعا الله عز وجل أن يهديهم، فاستجاب الله تعالى لدعائه، وذلك بدليل قدوم ثقيف عليه مسلمة بعد حصار الطائف ورجوعه إلى المدينة.

- ٣- إن لقاء بعض الجن بالرسول ﷺ بنخلة وإيمانهم به فيه عظة وعبرة للبشر الذين لا يؤمنون بالله ﷻ وبرسالة محمد ﷺ.
- ٤- لقد كان إيمان الجن برسول الله ﷺ بعد أن ناله ما ناله على أيدي ثقيف تسلية من الله ﷻ له أنسته آلامه، وأكدت له أن الله تعالى لن يتركه. فإن تخلى عنه أهل الأرض إلى حين ففي العوالم الأخرى من الجن والملائكة من يشد أزره ويؤمن به، وأن الله ﷻ الذي حول الجن إلى مؤمنين ودعاة إلى هذا الدين الجديد، لقادر على تحويل عتاة كفار قريش وثقيف إلى مؤمنين ودعاة بعد حين. وقد كان ذلك كذلك. [قلعة جي - رواس: قراءة جديدة للسيرة].
- ٥- إن من مآثر الجاهلية ذلك العرف الذي كانوا يحترمون، ألا وهو الجوار، وهو ما يعد من مآثر كثير من الدول الحديثة، ويعرف بـ(حق اللجوء السياسي)، بمصطلح (الدبلوماسية) الحديثة. وهو ما يمكن أن يستفيد منه الدعاة لتبليغ دعوتهم إلى الناس.
- ٦- إن إسلام عداس دليل على أن الرسول ﷺ لم يرجع من الطائف من دون نتائج إيجابية، بل رجع بها هو خير من حمر النعم، فقد هدى الله ﷻ عداساً على يديه، والرسول ﷺ يقول: «لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم» [مسلم].
- ٧- إن في قصة هجرته ﷺ إلى الطائف وما لاقاه من أذى من سفهاء ثقيف لعظة وعبرة للدعاة الذين يتأسون بسيرة الرسول ﷺ، فإذا كان الرسول ﷺ لقي ما لقي من المشاق في سبيل إقامة الدين، فمن باب أولى أن يلقي الدعاة أشد من ذلك، فعليهم أن يتهيؤوا لذلك، لأنه طريق الأنبياء والصالحين، ولأن حكمة الله ﷻ اقتضت أن لا ينتصر هذا الدين بدون عمل وجهد البشر.

## المبحث الثاني والثلاثون: التسلية الربانية

### أ- الإسراء والمعراج:

تأتي هذه المعجزة تكريمًا وتثبيتًا للرسول ﷺ بعد وفاة عمه الذي كان يحميه وزوجته التي كانت تواسيه، وبعدها أصابه في الطائف ومكة ما أصابه من الأذى. فهي بعد العام العاشر من البعثة كما تدل على ذلك مجريات الأحداث، ولكن اختلف في تحديد زمانها بعد العام العاشر [ابن كثير: البداية (٣/ ١١٩)].

بعد دراسة الآثار الواردة في تحديد الشهر واليوم الذي حدث فيه الإسراء والمعراج، خلص الشيخ طرهوني [صحيح السيرة] إلى أنه يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول. فقد ذكر موسى بن عقبة عن الزهري [مغازي عروة] وعروة بن الزبير [مغازي عروة]، أن الإسراء إلى بيت المقدس كان قبل خروج النبي ﷺ إلى المدينة بسنة. ومما لا جدال فيه أن الإسراء والمعراج ثابت بالقرآن والسنة.

فقد أشار القرآن الكريم إلى الإسراء والمعراج في سورتي الإسراء والنجم. ففي السورة الأولى ذكر قصة الإسراء وحكمته، في قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَّا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

وذكر في السورة الثانية قصة المعراج وثمرته، في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَ حَاجَةِ الْمُأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٣-١٨].

إن من أكثر أحداث السيرة بمكة مرويات هي هذه الحادثة، فمجموع رواياتها عند البخاري عشرون رواية، عن ستة من الصحابة رضي الله عنهم.

وعند مسلم نحوًا من ثماني عشرة رواية، عن سبعة من الصحابة رضي الله عنهم. [عرجون: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم].

ولا توجد رواية واحدة تجمع ما ورد من أحداث خلال هذه الرحلة، وإنما هناك روايات أشارت كل واحدة منها إلى بعض الأحداث. ومن خلال مجموع الروايات التي وردت عند البخاري ومسلم وغيرهما يمكن تلخيص مضمون تلك الروايات.

### شق الصدر:

بعد صلاة العشاء من تلك الليلة المباركة نزل جبريل رضي الله عنه وفرج عن سقف بيت الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة، وشق صدره ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدره، ثم أطبقه ثم أخذ بيده فعرج به [البخاري ومسلم وغيرهما].

### الإسراء:

عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته، فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فأتاني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة. قال: ثم عرج بي...» [متفق عليه].

وفي رواية أخرى أنه صلى بالأنبياء قبل المعراج، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة. [اليهقي: الدلائل].

### المعراج:

ثم عرج به إلى السماوات، وفي كل سماء يستفتح جبريل، ثم يسأل، ومن معك؟ فيقول: «محمد» فيرحب به. فرأى في السماء الدنيا آدم، وفي الثانية عيسى ويحيى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي

السابعة إبراهيم، مستنداً إلى البيت المعمور، ثم ذهب إلى سدرة المنتهى وفرض الله ﷻ عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة. وفي طريق عودته من معراجه، انتهى إلى موسى، فسأله موسى: «ما فرض ربك على أمتك؟» فأخبره، فطلب منه موسى أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف، ففعل وخفف الله ﷻ عنه خمس صلوات. ثم ما زال صاعداً ونازلاً بين ربه وموسى، وفي كل مرة يطلب منه موسى أن يرجع لربه ليخفف عنه، حتى خففها الله تعالى، فأصبحت خمس صلوات بأجر خمسين صلاة. وعندما طلب منه موسى الرجوع بعد هذا، قال: «قد سألت ربي حتى استحيت»، فنادى مناد: «قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي» [البخاري ومسلم وغيرهما].

وفي رواية أنس عن أبي ذر، قال بعد ذكر السماوات: «ثم عرج بي حتى ظهرت في مستوى أسمع فيه صريف الأقدام»، ثم ذكر فرض الصلاة، وقال: «ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيتها ألوان لا أدري ما هي؟ ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبال اللؤلؤ، وإذا تراها المسك» [متفق عليه].

وتناول النووي [شارح مسلم] قضية رؤية محمد ﷺ في المعراج واختلاف العلماء في ذلك، ثم رجح أن الرسول ﷺ رأى ربه، استناداً إلى حديث ابن عباس رضي الله عنهما في هذا، الذي قال فيه: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين».

قلت: وهذا الشاهد يؤيد من يقول بعدم الرؤية.

### العودة:

يتبين من الروايات أن طريق العودة كان من السماوات العلا إلى بيت المقدس ثم إلى مكة. فقد روى الترمذي عن شداد بن أوس: «... ثم انصرف بي فمررنا بغير لقريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بغيراً لهم، قد جمعه فلان، فسلمت عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد، ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة» [دلائل البيهقي بسند صحيح].

كانت وسيلة الإسراء البراق، بينما في المعراج استعملت الروايات الفعل المبني للمجهول «عُرِّجَ» فلم تبين الوسيلة، وفي بعضها: «نصب لي المعراج»، قال ابن كثير [في البداية]: (وهو السُّلَم، فصعد فيه إلى السماء، ولم يكن الصعود على البراق كما توهمه البعض).

### موقف قريش من الإسراء والمعراج:

خشي الرسول ﷺ أن يكذبه قومه، فأصبح في ذلك اليوم مهمومًا. فجلس إليه أبو جهل وهو في هذه الحال، وسأله مستهزئًا، «هل كان من شيء؟» فأخبره النبي ﷺ بالإسراء. فلم يشأ أن يكذبه ساعتئذ خشية أن يكتم ذلك أمام الناس، واكتفى بقوله: «أرأيت إن دعوت قومك إليك، أتحدثهم بما حدثني؟»، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فأسرع إلى قومه، فدعاهم، فجاءوا إليه، وطلب منه أبو جهل أن يحدثهم فحدثهم. فتعجبوا من حديثه، وطلب منه من رأى المسجد الأقصى أن يصفه لهم. فرفعه الله عز وجل له، فأخذ يصفه لهم، وهو ينظر إليه، فقالوا: «أما النَّعْتُ فقد والله أصاب» [البخاري ومسلم وغيرهما].

وفي رواية أنهم استنكروا أن يذهب الرسول ﷺ إلى الشام ثم يعود في جزء من ليلة واحدة، وهم يذهبون ويعودون في مدة شهرين، ولذا ارتد ناس ممن كان قد أسلم [أحمد في المسند والحاكم بسند صحيح].

أما أبو بكر فعندما أخبر بالخبر، صدقه دون تردد، قائلاً: «والله لئن كان قاله لقد صدق، وما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فهذا أبعد مما تعجبون منه»، ثم أقبل على النبي ﷺ يسأله عن وصفه، وكلما ذكر شيئاً قال: صدقت. أشهد إنك رسول الله... فقال النبي ﷺ: «وأنت يا أبا بكر الصديق»، فيومئذ سمَّاه الصديق. [الحاكم بسند صحيح].

### الأدلة على أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معاً:

قال القاضي عياض [في الشفا]: (اختلف العلماء في الإسراء والمعراج برسول الله ﷺ، فقيل إنما كان جميع ذلك في المنام، والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أُسري بجسده ﷺ، والآثار تدل عليه لمن طالعتها وبحث عنها ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل، ولا استحالة في حملها عليه فيحتاج إلى تأويل...).

وقال ابن حجر [في الفتح]: (إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد البعث، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل...).

### ب- دلالات وعظات وعبر:

١- إن حديث الإسراء والمعراج متفق عليه بين أهل الحديث والمغازي، وثبت بآيات قرآنية وبأحاديث نبوية، فهو قطعي الثبوت. وهو بإجماع جماهير المسلمين من معجزاته ﷺ. وفي إنكاره إنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة.

٢- جاءت هذه المعجزة بعد المحن التي ابتلي بها الرسول ﷺ لتجدد عزيمة الرسول ﷺ ولتدل على أن هذا الذي يلاقه من قومه ليس سببه تخلي الله عز وجل عنه، وإنما هي سنة الله ﷻ مع أحبائه في كل عصر ومصر؛ وبينت للرسول ﷺ أن المستقبل لدينه، وذلك بإقرار إمامته للأنبياء السابقين، وما تمثل له من رموز لهذا المعنى؛ وبينت له أن الأرض إذا ضاقت في وقت، فإن السماء تفتح أبوابها لتستقبله، ولئن آذاه بعض أهل الأرض في وقت ما، فإن أهل السماء يقفون له مستقبلين ومرحبين.

٣- إن الاقتران الزماني والمكاني بين إسرائه ﷺ إلى بيت المقدس والعروج به إلى السماوات السبع، لدلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى. وفيه دلالة واضحة أيضًا على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به كل من عيسى ومحمد ﷺ، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي بعثوا به<sup>(١)</sup>؛ وفيه دلالة على واجب المسلمين في الحفاظ على هذه الأرض وحمايتها من مطامع أعداء الإسلام.

٤- ولعل الحكمة في مرور هذه الرحلة ببيت المقدس، ولم تكن من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة، هو أنه عندما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام الله حلت بهم لعنة الله، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد، على الرغم من أنها ظلت فيهم زمانًا طويلًا، ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالًا بالقيادة في العالم من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد، ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل، وهو انتقال فيه احترام للإيمان الذي درج - قديمًا - في رحابه. [الغزالي ورواس].

٥- إن في اختيار رسول الله ﷺ اللبن على الخمر حينما قدمها له جبريل ﷺ، دلالة على أن الإسلام هو دين الفطرة. لأن اللبن مادة لم تتغير طبيعتها، والخمر نتيجة تغيير كيميائي في طبيعة العنب وغيره من مصادر الخمر، إضافة إلى أن الخمر يغير فطرة الإنسان؛ لأنه يذهب العقل.

٦- إن في جمع الله ﷻ المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها، ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة دل على أن النبوات يصدق بعضها بعضًا، وأن محمدًا هو خاتمهم الذي اكتمل به الدين، وأبان مكانة محمد ﷺ عند ربه.

(١) إشارتي هنا إلى الحديث الصحيح: «...والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

٧- إن رؤية طرف من آيات الله ﷺ الكبرى في ملكوت السماوات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين ومعرفة عقابهم، ورفع لمعنويات نبيه ﷺ وأصحابه ليوажهوا قوى الكفار المتألبة عليهم.

٨- إن وقوع مثل معجزة الإسراء والمعراج للرسول ﷺ بعد مضي اثني عشر عاماً من مبعثه دَلَّ على أن الخوارق والمعجزات تأتي في طريق محمد ﷺ ضرباً من التكريم والإيناس لشخصه، غير معكرة ولا معطلة للمنهج العقلي العادي، وذلك على عكس ما وقع لبعض الأنبياء، مثلما وقع لموسى ﷺ، حيث إن الخوارق في سير هذا البعض قصد بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة.

وتأكيداً لهذا، فعندما اقترح المشركون على النبي ﷺ أن يرقى في السماء، جاء الجواب من الله ﷺ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

فلما رقى في السماء بعد ذلك، لم يذكر قط أن ذلك ردّاً على التحدي أو إجابة على الاقتراح السابق.

٩- إن فرض الصلوات الخمس في ليلة المعراج دليل على أهمية هذا الركن من أركان الإسلام، الذي يجب أن يكون معراجاً يرقى بالناس كلما تدلت بهم شهوات النفوس وأغراض الدنيا [الغزالي].

### ● المبحث الثالث والثلاثون: البحث عن وطن للدعوة

#### ● أ- عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل:

كان الرسول ﷺ في حركة دائبة للبحث عن مكان يعبد الله ﷻ فيه آمناً، ولذا كان أمره للصحابة بالهجرة إلى الحبشة، وهجرته هو إلى الطائف، ثم عرض نفسه على القبائل. وكان عرض نفسه على القبائل بأمر من الله ﷻ، ودليل هذا قول ابن حجر [في الفتح]: (وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي [كلاهما في الدلائل] بإسناد حسن عن

ابن عباس: «حدثني علي بن أبي طالب قال: لما أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب...». وكانت مواسم الحج وأسواق العرب مناسبات هامة للالتقاء بذوي الشأن من رؤساء القبائل وغيرهم من الأفراد العاديين. وكان يطلب من ذوي الشأن أن يحموه، دون أن يكرههم على دعوته.

ومما كان يقوله في هذه المواسم [كما روى أحمد وأبو داود وابن ماجه والذهبي]: «هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً تمنعوني أن أبلغ كلام ربي».

و: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به...» [أحمد: المسند، بسند جيد؛ ابن إسحاق: السيرة].

وتقول الرواية نفسها إن عمه أبو لهب - عبد العزى بن عبد المطلب - كان يسير خلفه، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من حديثه، قال: «هذا يدعوكم إلى أن تفارقوا دين آبائكم وأن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلال...» وفي رواية عند ابن إسحاق في السير، بسند حسن، أنه كان يتبعه ويرميه بالحجارة، وقد أدمى قدميه.

ومن القبائل التي عرض رسول الله ﷺ نفسه عليها ودعاها إلى الإسلام فأبوا: كندة، وفيهم سيدهم مَلِيح - أو فُلَيْح [ابن إسحاق: السيرة والسير]، وبنو عبد الله من كلب [المصدران نفساهما]، وبنو حنيفة، وكان ردهم عليه قبيحاً [ابن إسحاق: السيرة]، وبنو عامر ابن صَعَصَعَة، وقال رجل منهم يدعى بَيْحَزَة بن فِرَاس: «والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب.. أرأيت إن تابعتك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك،

أَيكون لنا الأمر من بعدك؟» قال: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»، قال: «أَفْهَدْ نَحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك؛ فأبوا عليه.

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركته السن، حتى لا يقدر أن يُؤاْفِي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سأهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا، قال: فوضع الشيخُ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلافٍ، هل لَدُنَّاها [أي ذنبها] من مطلب، والذي نفسُ فلان بيده، ما تَقَوَّها إسماعيلُ قَطًّا، وإنما لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟»، ومُحَارِبُ بن حَصَفَةَ وفَزَارَةَ وغَسَّانَ ومُؤرَّةَ وسُلَيمَ وعَبَسَ وبنو النضر وبنو البكاء، وعُدْرَةَ والحَضَارِمَةَ، [ابن سعد] وربيعَةَ وبنو شيبان الذين كان فيهم وعلى رأسهم: مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، وقد تعللوا بحجج منها الرغبة في التريث إلى حين أخذ مشورة من وراءهم من قومهم، وفي هذا قال المثنى: «وإنما نزلنا على عهد أخذنا علينا كسرى، لا نحدث حَدَثًا ونؤوي محدثًا، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعو إليه مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤيدك ونصرك مما يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من أحاطه الله من جميع جوانبه، رأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلًا حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم، أتسبِّحون الله وتقدِّسونه؟»، فقال النعمان بن شريك: «اللهم! نعم»، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

وقد سر رسول الله ﷺ من أخلاقهم. [ابن حبان: السيرة؛ البيهقي: الدلائل، بسند حسن؛ الحاكم وأبو نعيم، بسند حسن].

لقد كان أهل المدينة أكثر الناس تجاوبًا مع دعوة الرسول ﷺ عندما عرض عليهم الإسلام. فعندما عرض الرسول ﷺ الإسلام على سُويد بن الصامت، لم يعلن الإسلام ولم يبعد عنه، واستحسن ما سمع من القرآن. وعندما عاد إلى بلاده، وقتل في حرب بُعَاث - بين الأوس والخزرج -، كان رجال من قومه يقولون إنه مات مسلمًا. [ابن إسحاق: السيرة].

وروى ابن إسحاق [في السيرة بسند حسن] أن وفدًا من بني عبد الأشهل على رأسه أبو الحيسر، أنس بن رافع، وفيه إياس بن معاذ، قدموا مكة يلتمسون الحلف مع قريش ضد قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: «هل لكم خير مما جئتم له؟»، فقالوا له: «وما ذاك؟»، قال: «أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليّ الكتاب». ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ، وكان غلامًا حديثًا: «أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له». فزجره أبو الحيسر، فصمت، وسمعه قومه عند موته يهليل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلمًا.

لقد استشعر إياس الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من الرسول ﷺ ما سمع. وفي السنة الحادية عشرة من البعثة عرض نفسه على نفر - قيل ستة وقيل ثمانية - من الخزرج، عند العقبة، فجلسوا معه. فدعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن [ابن إسحاق: السيرة؛ ابن كثير: البداية: من حديث ابن عقبة].

وكان مما مهد أفئدتهم لقبول الإسلام أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، ومعلوم أنهم أهل كتاب وعلم، فكان إذا وقع بينهم وبين اليهود نفرة أو قتال قال لهم اليهود: «إن نبيًا مبعوثًا الآن قد أطل زمانه، سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم!».

فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام نظر بعضهم لبعض وقالوا: «تعلمون والله أنه للنبي الذي تدعوكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه». فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الإسلام. وقالوا: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فدعوهم إلى أمرك. ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك».

ثم انصرفوا، ووعدوه المقابلة في الوسم المقبل.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن].

وهناك سبب آخر أدى إلى تمهيد أفئدة أهل المدينة لقبول الإسلام، وهو يوم بُعث. فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان يوم بعث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملوهم وقتلت سرواتهم [خيارهم وأشرفهم] وجرحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام».

## ب- عظات وعبر:

١ - إن أمثال أبي لهب لا ينعدم في مجتمعات الكفر والانحراف العقدي الصريح، وهي نماذج من الناس مثل سلوك وتفكير أبي لهب، تقف في وجه الدعاة في كل زمان ومكان، بمثل موقف أبي لهب من ابن أخيه محمد ﷺ، ويصدون عن سبيل الحق ويبغونها عوجاً، بما يتاح لهم من وسائل، فيصفون دعاة الدين الحق بأنهم دعاة بدعة وضلالة، ودعاة دين جديد أو مذهب خامس، أي ليس من بين المذاهب الأربعة المشهورة. ولم يتأثر الرسول ﷺ لموقف عمه أبي لهب، بل استمر في دعوته. فعلى الدعاة أن يتأثروا بمواقف المغرضين.

٢- على الدعاة أن يطرقوا جميع الأبواب التي يمكن أن تقود إلى التمكين للدين في الأرض، وعدم اليأس مهما تكررت محاولات الاتصالات الفردية والجماعية، ومهما كانت النتائج القريبة سلبية.

### المبحث الرابع والثلاثون: البيعة

#### أ- بيعة العقبة الأولى:

في الموسم التالي من العام الثاني عشر للبعثة، جاء إلى أداء مناسك الحج اثنا عشر رجلاً من المسلمين من المدينة بعضهم ممن لقي النبي ﷺ في الموسم السابق وآمن به، فلقوا الرسول ﷺ مع جماعة من أصحابه حتى بايعوه. وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث عبادة بن الصامت الذي كان ضمن حجاج المسلمين من المدينة، روى صيغة هذه البيعة، وهي:

قال عبادة: إن الرسول ﷺ قال لهم: «تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً، فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه»، فبايعوه على ذلك.

قال عبادة بن الصامت في رواية ابن إسحاق [في السيرة بسند حسن] «فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب». [أي: على غرار بيعة النساء ثاني أيام فتح مكة، وليس فيها الجهاد].

وعندما أرادوا العودة إلى بلادهم، بعث رسول الله ﷺ مُصْعَبَ بن عُمَيْرٍ ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى (مقرئ المدينة). وكان منزله على أسعد ابن زُرارة [رواه أئمة السيرة، وإسناده في الدلائل (٢/٤٣٨) مرسل حسن، ورجاله ثقات].

روى أبو داود وابن إسحاق [في السيرة بسند حسن]، وغيرهما من طريق عبد الرحمن ابن كعب بن مالك أن أول من أقام صلاة الجمعة بالمدينة هو أسعد بن زرارة، وكانوا أربعين رجلاً أمّهم مصعب بن عمير. فقد كتب إليه الرسول ليجمع بهم [الدارقطني: السنن].

أسلم خلق كثير من الأنصار على يد مصعب بمعاونة أسعد بن زرارة، وممن أسلم من أشرفهم [كما روى ابن إسحاق في السيرة بسند مرسل حسن]: أسيد بن الحُصَيْر وسعد ابن معاذ، وأسلم بإسلامهما يومئذ جميع بني عبد الأشهل الرجال والنساء، إلا أصيرم عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد، وأسلم حينئذ وقاتل فقتل قبل أن يسجد لله سجدة واحدة، فأخبر عنه النبي ﷺ، فقال: «عَمِلَ قَلِيلًا، وَأُجِرَ كَثِيرًا» [البخاري وابن إسحاق في السيرة بسند حسن].

ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف (وتلك أوس الله)، وهم الأوس ابن حارثة؛ وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأُسَلْت الشاعر - وكانوا يطيعونه - فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة [ابن إسحاق: السيرة، مرسلًا].

وقبل حلول موسم الحج التالي - أي حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب ابن عمير إلى مكة ليشير الرسول ﷺ بنجاح مهمته، بتوفيق الله تعالى [ابن إسحاق: السيرة].

### ب- بيعت العقبة الثانية:

وفي موسم الحج التالي من العام الثالث عشر للبعثة، قدم مكة لأداء مناسك الحج مجموعة كبيرة من مسلمي المدينة، ضمن حجاج كثيرين من مشركي المدينة، وكان زعيمهم جميعاً البراء بن معرور [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن].

وقد تساءل مسلمو الأنصار فيما بينهم حتى متى يتركون رسول الله ﷺ يطوف ويطرده في جبال مكة ويخاف [أحمد: المسند، وسنده صحيح].

وجرت بينهم وبين الرسول ﷺ اتصالات سرية أدت إلى الاتفاق على تحديد زمان ومكان اللقاء؛ لإبرام اتفاق من أعظم وأهم الاتفاقيات في تاريخ الإسلام.

وقد روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] قصة هذا اللقاء عن كعب بن مالك، قال رحمته الله: «... ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق. فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها... فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا في رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشَّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نساءنا: نَسِيْبَةُ بنت كَعْب - أُمُّ عُمَارَةَ - وأسماء بنت عمرو بن عدي... وهي أُمُّ مَنِيع.

«فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس ابن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: «يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجهما وأوسها - إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن رأيهم مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإذا كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. فإنه في عزٍّ وَمَنَعَةٍ من قومه وبلده». قال: فقلنا له: «قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت».

فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ البراء بن معرور بيده

ثم قال: «والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة [السلامة]، ورثناها كإبراهيم عن كابر». فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ، أبو الهيثم بن التيهان، فقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حباً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيّت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟»، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بَلِ الدِّمُ الدِّمُ، والهدمُ الهدمُ [أي: ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم]، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

بعد الاتفاق على شروط هذه البيعة، وقبل الشروع في عقدها، أراد اثنان من الأنصار، ممن أسلم في موسم حج عام إحدى عشرة واثنتي عشرة من المبعث، وهما: العباس بن عبادة بن نضلة وأسعد بن زرارة، أرادا أن يبينا لقومهما حقيقة وخطورة الالتزام بهذه البيعة، حتى يبائعوا على علم ويقين تام، وليعرفا ويتأكدوا من مدى استعداد الأنصار للجهاد والاستشهاد.

قال العباس بن نضلة: [كما روى ابن إسحاق في السيرة بسند مرسل] «هل تدرون علام تبائعون هذا الرجل؟» قالوا: «نعم»، قال: «إنكم تبائعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبةً، وأشرفكم قتلاً، أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة»، قالوا: «فإننا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟»، قال: «الجنة»، قالوا: «أبسط يدك»، فبسط يده فبايعوه».

وقال أسعد بن زرارة عندما قام الناس للبيعة: «رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نصرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجنا اليوم مفارقة العرب كافة،

وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإمّا أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإمّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله»، فقالوا له: «يا أسعد، أمطّ عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقبلها» [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وعندما تأكد لأسعد موقف قومه، ضرب على يد الرسول ﷺ - أي صافحه - مبايعاً، ثم تتابع القوم رجلاً رجلاً لمبايعة الرسول ﷺ، مبشراً بالجنة من وفي بها [المصدر نفسه]. وذكر ابن إسحاق [في السيرة بسند حسن]، أن أول من ضرب على يد الرسول ﷺ البراء بن معرور.

وأما عن كيفية مبايعة المرأتين فقد قال ابن إسحاق [في السيرة]: (يزعمون أنها قد بايعتا - يعني صافحتا - وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء، إنما كان يأخذ عليهن، فإذا أقرن قال: «أذهبن فقد بايعتكن»).

وعندما تمت البيعة قال لهم رسول الله ﷺ [كما روى ابن إسحاق في السيرة]: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم» فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهم:

عبادة بن الصامت، البراء بن معرور، عبد الله بن رواحة، سعد بن الربيع، أبو أمامة أسعد بن زرارة، سعد بن عبادة، المنذر بن عمرو، أسيد بن حضير، سعد بن خيثمة، عبد الله بن حرام، رافع بن مالك، أبو الهيثم ابن التيهان. وذكر ابن إسحاق [في السيرة] جميع من حضر البيعة.

وروى ابن إسحاق [في السيرة بسند مرسل حسن] أن رسول الله ﷺ قال للنقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا: نعم».

لقد روى البخاري ومسلم وابن إسحاق [في السيرة بسند حسن] بنود هذه البيعة. ولكن رواها أحمد [في المسند، بسند حسن] من حديث جابر، والبيهقي [في الدلائل بسند جيد] من حديث جابر وعبيد بن رفاع بتفصيل أكثر مما جاء عند البخاري ومسلم وابن إسحاق.

قال جابر: «قلنا يا رسول الله علام نبايعك؟ قال:

١- على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

٢- وعلى النفقة في العسر واليسر.

٣- وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤- وعلى أن تقولوا في الله، ولا تأخذكم في الله لومة لائم.

٥- وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم، ولكم الجنة»، وهو لفظ أحمد والبيهقي مع اختلاف يسير.

أما لفظ ابن إسحاق المشار إليه فهو، قال ابن الصامت: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم».

بعد أن تمت البيعة وتعين النقباء، كان القوم على وشك مغادرة مكان اللقاء، فإذا بالشیطان يكتشف هذا اللقاء. وليمكن زعماء المشركين من المجيء والقبض على المسلمين قبل أن ينفذوا، صرخ الشيطان على العقبة بأنفذ صوت سُمع، قائلاً: «يا أهل الجبابج [منازل منى]، هل لكم في مُذَمَّم [المذموم] والصُّبَاة معه، قد اجتمعوا على حربكم؟» فقال رسول الله ﷺ: «هذا أَرَبُ [اسم شيطان] العقبة، هذا ابن أَرَيْب، اسمع أي عَدُوَّ الله، أما والله لأَفْرُغَنَّ لَكَ». ثم قال رسول الله ﷺ: «أَرَفِضُوا [تفرقوا] إلى رحالكم» [ابن إسحاق في السيرة بسند حسن]. [ويقال: ابن أَرَيْب].

وعند سماع صراخ وقول هذا الشيطان، قال العباس بن عباد بن نضلة: «والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فنا». فقال لهم رسول الله ﷺ: «لم تؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعوا وناموا حتى أصبحوا [المصدر نفسه].

قال كعب بن مالك: «فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه - والله - ما من حي من العرب أبغض إلينا إن نشبت الحرب بيننا وبينهم منكم. قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يملفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه. قال: وقد صدقوا، لم يعلموه. قال: وبعضنا ينظر إلى بعض... قال: ونفر الناس من منى فتنطس [بالغوا في التحري عنه] القوم الخبر، فوجدوه قد كان».

وتقول الرواية: إنهم خرجوا في طلب القوم، ولم يدركوا غير سعد بن عباد والمنذر بن عمرو. فأفلت منهم المنذر وقبضوا على سعد، وعادوا به، مغلولة يداه إلى عنقه، ويجذبونه من شعره، ويلكزونه، حتى أنقذه الله منهم بجبير بن مطعم والحارث بن حرب، إذ كان سعد يجير لهما قوافلها المارة بالمدينة المنورة في طريقها من الشام وإليها [المصدر نفسه].

### نتائج وعبر من بيعة العقبة الثانية:

لقد كان لهذه البيعة نتائج عظيمة قريية وأخرى بعيدة. فمن النتائج القريية:

١ - إن الأنصار قد فهموا أن حماية الرسول ﷺ سوف تعرضهم لعداوة واعتداء أعداء الرسول ﷺ من المشركين واليهود.

وهذا يعني الجهاد، على الرغم من أن بنود البيعة لم تنص صراحة على أبعد من ذلك، أي التصدي لمن يقف في طريق الدعوة الإسلامية.

٢ - إن سعي مشركي مكة للقبض على مسلمي المدينة عندما اتضح لهم أن هناك ثمة تدبيراً منهم لحماية رسول الله ﷺ، يدل على أن عداوة الشرك والكفر للإيمان في كل مكان.

- ٣- إن السرية التي أحيطت بهذه البيعة وغيرها دليل على مشروعية أخذ الحذر والحيلة عند تدبير الأمور، لا سيما الأمور التي تتعلق بمستقبل الدعوة.
- ٤- لقد كانت هذه البيعة الأساس الذي هاجر عليه المسلمون - بمن فيهم الرسول ﷺ - إلى المدينة المنورة.
- ٥- أضحى الإسلام عزيزاً في المدينة، فاستعلن بإسلامه من كان قد استخفى به.
- ٦- ضيق كفار مكة الخناق على المسلمين عندما عرفوا خطورة اتصال الرسول ﷺ بمسلمي المدينة. وكان هذا التضيق سبباً في تعجيل الرسول ﷺ بأمر هجرتهم إلى المدينة.
- ٧- أما على المدى البعيد، فقد كانت هذه البيعة الأساس الذي قامت عليه الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وانطلاقاً من هناك إلى أنحاء الدنيا [الشامي: المعين؛ البوطي: السيرة].
- ٨- ولأهمية هذه البيعة، ولما ترتب عليها من نتائج عظيمة قريبة وبعيدة، فقد كان للمبايعين فيها وفي التي قبلها فضل لا يكاد يقل عما لأهل بدر والهجرتين - هجرة الحبشة وهجرة المدينة - وبيعة الرضوان، من شرف وفضل.
- ٩- إن عداوة الشيطان للحق وتألمه من علو نجمه ظاهرة ماضية، فهو دائماً ما يغري أعداء الإسلام بالمؤمنين من أهل المدينة والرسول ﷺ.
- ١٠- كانت بيعة العقبة الثانية شاملة للمبادئ التي سيتم مشروعيتها بعد الهجرة إلى المدينة، وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة، وهو حكم وإن لم يكن قد أذن الله عز وجل بشرعيته في مكة إلا أن الله عز وجل قد ألهم نبيه محمداً ﷺ أن ذلك سيشرع في المستقبل القريب؛ والدليل على ذلك رد الرسول ﷺ على العباس بن عباد الذي أبدى الاستعداد على حرب أهل منى، فقال له الرسول ﷺ: «لم نؤمر بذلك...».

ومن المتفق عليه أن أول آية نزلت في مشروعية الجهاد قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، حيث نزلت عندما قال أبو بكر رضي الله عنه مستنكراً إخراج قريش الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة: «أخرجوا نبيهم! إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن». وعندما نزلت الآية، قال أبو بكر: «عرفت أن سيكون قتال» [الترمذي، وحسنه وصححه الألباني].

١١ - اقتضت رحمة الله عز وجل بعباده أن لا يحملهم واجب القتال، إلى أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه، ولقد كانت المدينة أول دار في الإسلام [البوطي]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى حتى يتربوا التربية التي تؤهلهم للجهاد.

١٢ - ومن هنا تعلم أن مشروعية القتال في الإسلام لم تكن إلا بعد هجرته على الصحيح، وليس كما يفهم من كلام ابن إسحاق [في السيرة]، إنه إنما شرع قبل الهجرة عند بيعة العقبة الثانية [ابن هشام، بسند حسن]، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

### فائدة:

روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن]، أن البراء بن معرور رضي الله عنه، عندما جاء إلى مكة لمبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم في العقبة الثانية، كان يصلي - في تلك السفارة - إلى الكعبة، وعندما التقى بالرسول صلى الله عليه وسلم قال: يا نبي الله، إني خرجت في سفري هذا، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر، فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها. فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلى رضي الله عنه إلى الشام...».

وبذلك يكون البراء أول من صلى إلى الكعبة في الإسلام.

